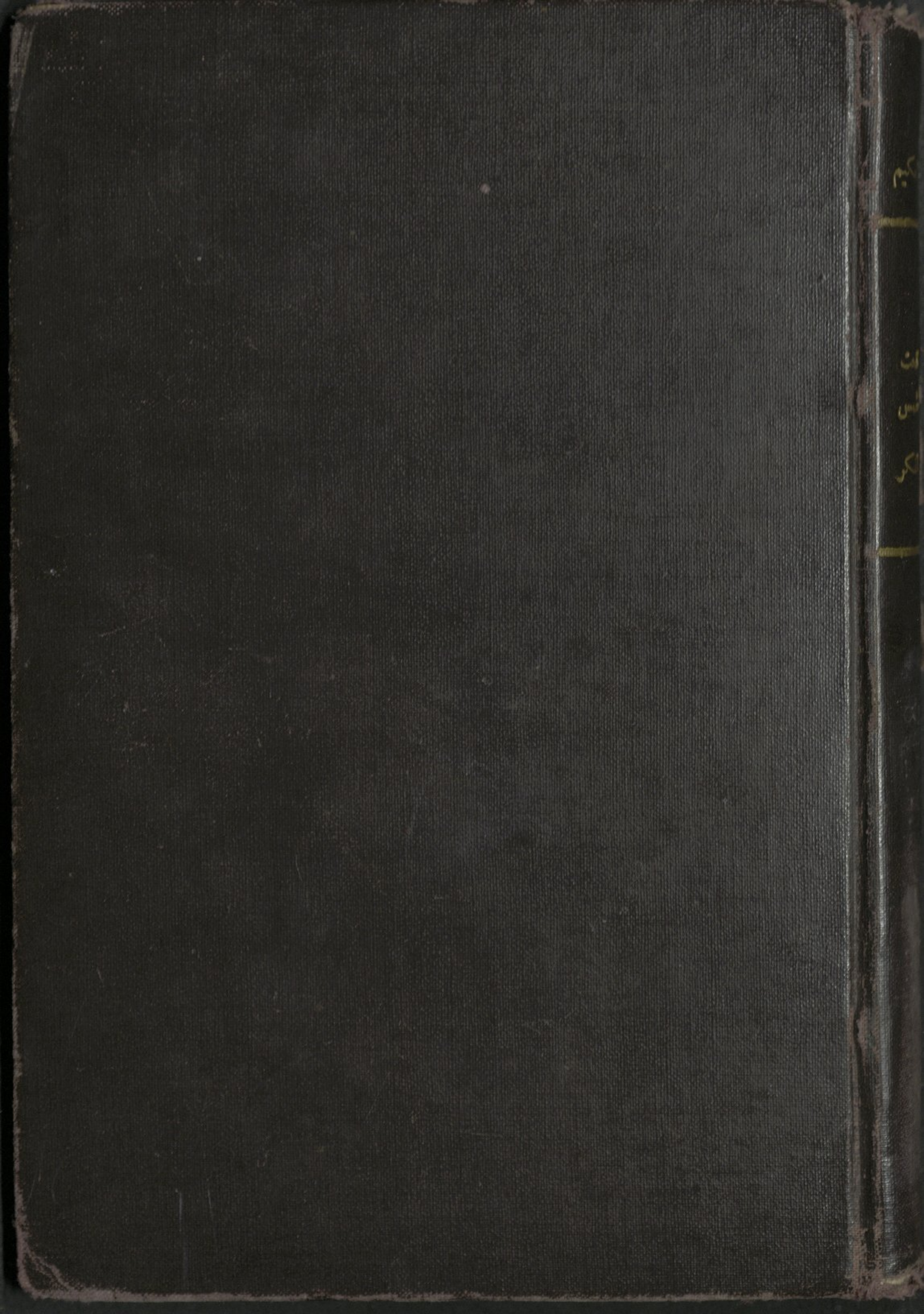
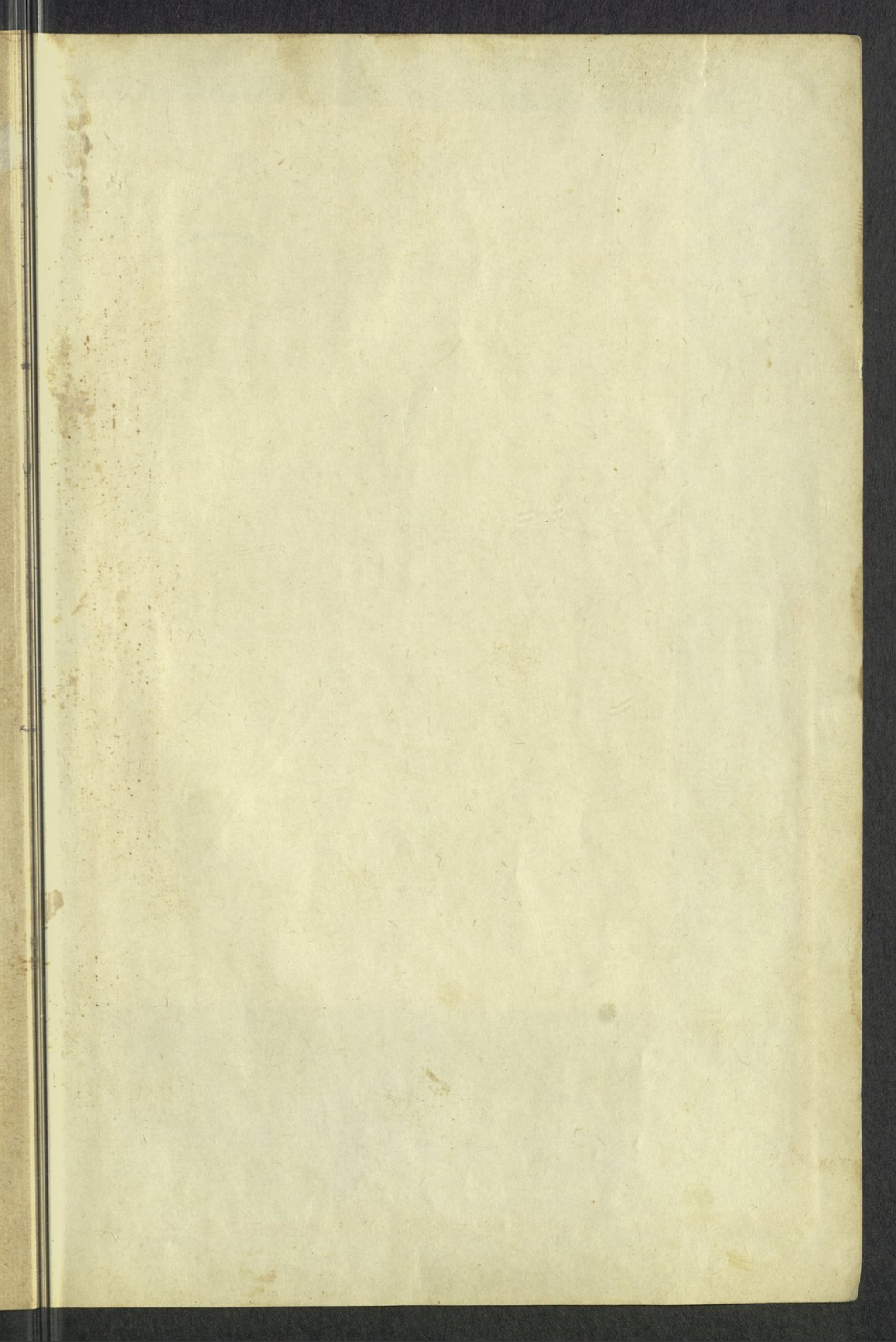
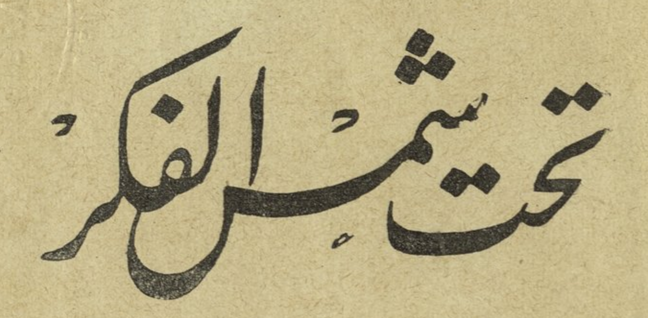


4

DATE DUE



توفيق الحكيم



الناشر — مكتبة الآداب بالجماميز ت: ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية
٦ حارة الشابوري بالحلمية الجديدة

الطبعة الرابعة

أضيفت اليها فصول جديدة

(٣)

كتب للمؤلف

نشرت فى اللغة العربية

محمد
الطبعة الأولي : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)
الطبعة الثانية : (مطبعة المعارف عام ١٩٣٦)

شهرزاد
الطبعة الاولى : (مطبعة دار الكتب عام ١٩٣٤)
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)
الطبعة الثالثة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٢)

أهل الكهف
الطبعة الأولى : (مطبعة مصر عام ١٩٣٣)
الطبعة الثانية : (مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٣)
الطبعة الثالثة : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٠)
الطبعة الرابعة: (مطبعة التوكل عام ١٩٤٥)
الطبعة الخامسة: (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٨)
الطبعة السادسة: (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٣)

عودة الروح
فى جزءين
الطبعة الأولى: (مطبعة الرغائب عام ١٩٣٣)
الطبعة الثانية: (مطبعة المعارف عام ١٩٤٦)

تحت شمس الفكر
الطبعة الاولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١)
الطبعة الثالثة : (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٥)
الطبعة الرابعة: المطبعة النموذجية عام ١٩٥٤

تاريخ حياة معدة
الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
الطبعة الثانية : (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٥

تابع الكتب التى نشرت فى اللغة العربية

عهد الشيطان	الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨) الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)
براكسا أو مشكلة الحكم	(مطبعة التوكل عام ١٩٣٩)
راقصة المعبد	الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٣٩) الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٠)
نشيد الإنشاد	(مطبعة مصر عام ١٩٤٠)
حمار الحكيم	الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٠) الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢) الطبعة الثالثة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٢)
سلطان الظلام	الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١) الطبعة الثانيه : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)
من البرج العاجى	(مطبعة التوكل عام ١٤١)
تحت المصباح الأخضر	(مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)
أهل الفن	(مطبعة دار الهلال عام ١٩٣٤)
بجماليون	الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢) الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)
مسرحيات	المجلد الأول : ويشمل قصص : سر المنتحرة ، نهر الجنون ، رصاصة فى القلب ، جنسنا اللطيف (مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٧)
القصر المسحور	بالاشتراك مع الدكتور طه حسين (مطبة دار النشر الحديث عام ١٩٣٦)
مسرحيات	المجلد الثانى : ويشمل قصص الخروج من الجنة أو المهمة . أمام شباك التذاكر . الزمار . حياة تحطمت (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)

تابع الكتب التي نشرت فى اللغة العربية

يوميات نائب فى الأرياف	الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧) الطبعة الثانية : لحساب وزارة المعارف العمومية (مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر عام ١٩٣٧) الطبعة الثالثة : (طبعة مدرسية) (النموذجية ١٩٤٩) الطبعة الرابعة : (النموذجية ١٩٥٣)
عصفور من الشرق	الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨) الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١) الطبعة الثالثة : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣) الطبعة الرابعة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥١)
سليمان الحكيم	الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣) الطبعة الثانية : (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩)
زهرة العمر	الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣) الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)
رصاصة فى القلب	(مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)
الرباط المقدس	(مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٤)
حمارى قال لى	(مطبعة المعارف عام ١٩٤٥)
شجرة الحكم	(مطبعة التوكل عام ١٩٤٥)
الملك أوديب	(المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩)
قصص توفيق الحكيم	(المجموعة الأولى والثانية (مطبعة دار سعد مصر ١٩٤٩)
مسرح المجتمع	(المطبعة النموذجية عام ١٩٥٠)
فن الأدب	(المطبعة النموذجية عام ١٩٥٢
ذكريات الفن والقضاء	(مطبعة المعارف عام ١٩٥٣)
عصا الحكيم	(مطبعة الهلال عام ١٩٥٣)

كتب للمؤلف

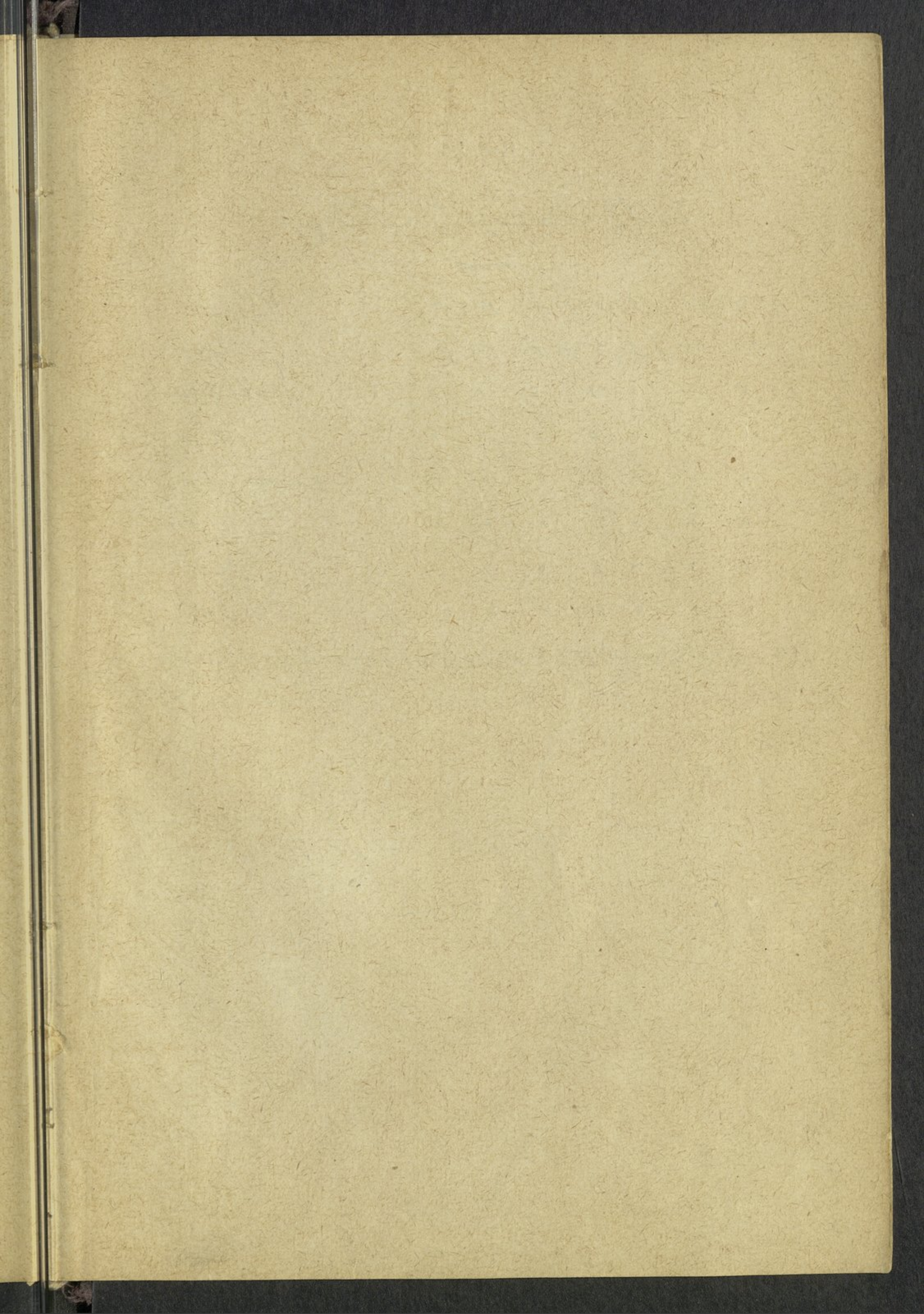
نشرت فى لغة أجنبية

شهرزاد	ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج ليكونت عضو الأكاديمية الفرنسية . فى دار نشر نوفيل ايديسيون لاتين وترجم الى الانجليزية ونشرت مختارات منه فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر كراون) بنيويورك . فى عام ١٩٤٥
عودة الروح	ترجم ونشر بالروسية فى لينجراد عام ١٩٣٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل للنشر. وبالانجليزية ونشرت مختارات منه فى لندن عام ١٩٤٢
يوميات نائب فى الأرياف	ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وترجم ونشر باللغة العبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الانجليزية فى (دار هارفل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ وترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨
أهل الكهف	ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكولاج دى فرنس ثم ترجم الى الايطالية بروما عام ١٩٤٠
عصفور من الشرق	ترجم ونشر بالفرنسية عام ٩٤١

تابع الكتب التي نشرت باللغة الأجنبية

بجماليون	:	ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠
أوديب	:	ترجم ونشر بالفرنسيه فى باريس عام ١٩٥٠
سليمان الحكيم	:	» » » » » » »
نهر الجنون	:	» » » » » » »
عرف كيف يموت	:	» » » » » » »
المخرج	:	» » » » » » »
بيت النمل	:	» » » » » » »
الزمار	:	» » » » » » »

(«فى مجلد بعنوان مسرحيات عربية عن دار نشر « نوفيل ايديسيون لاتين بباريس »)

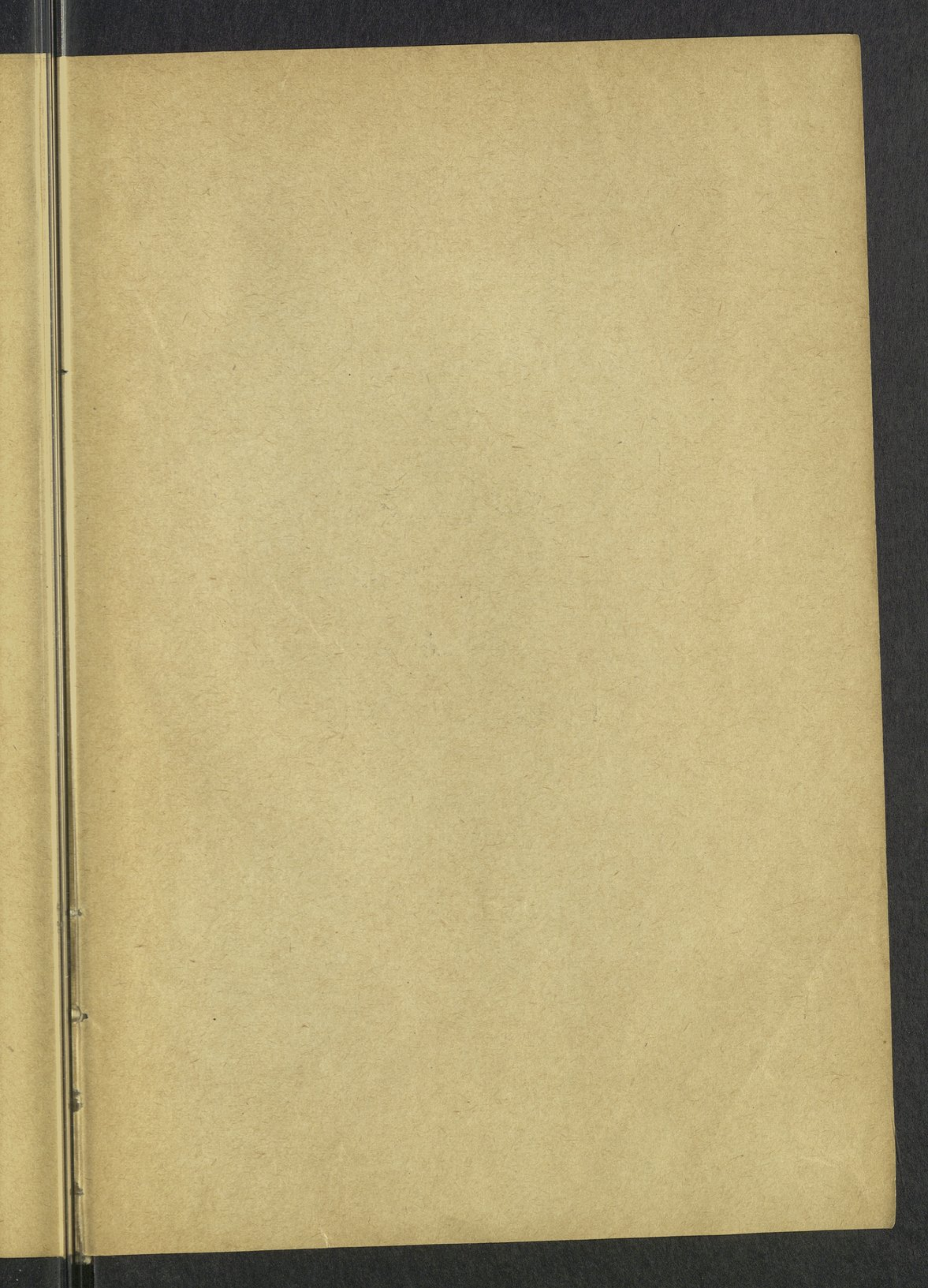


تحت شمس الفكر

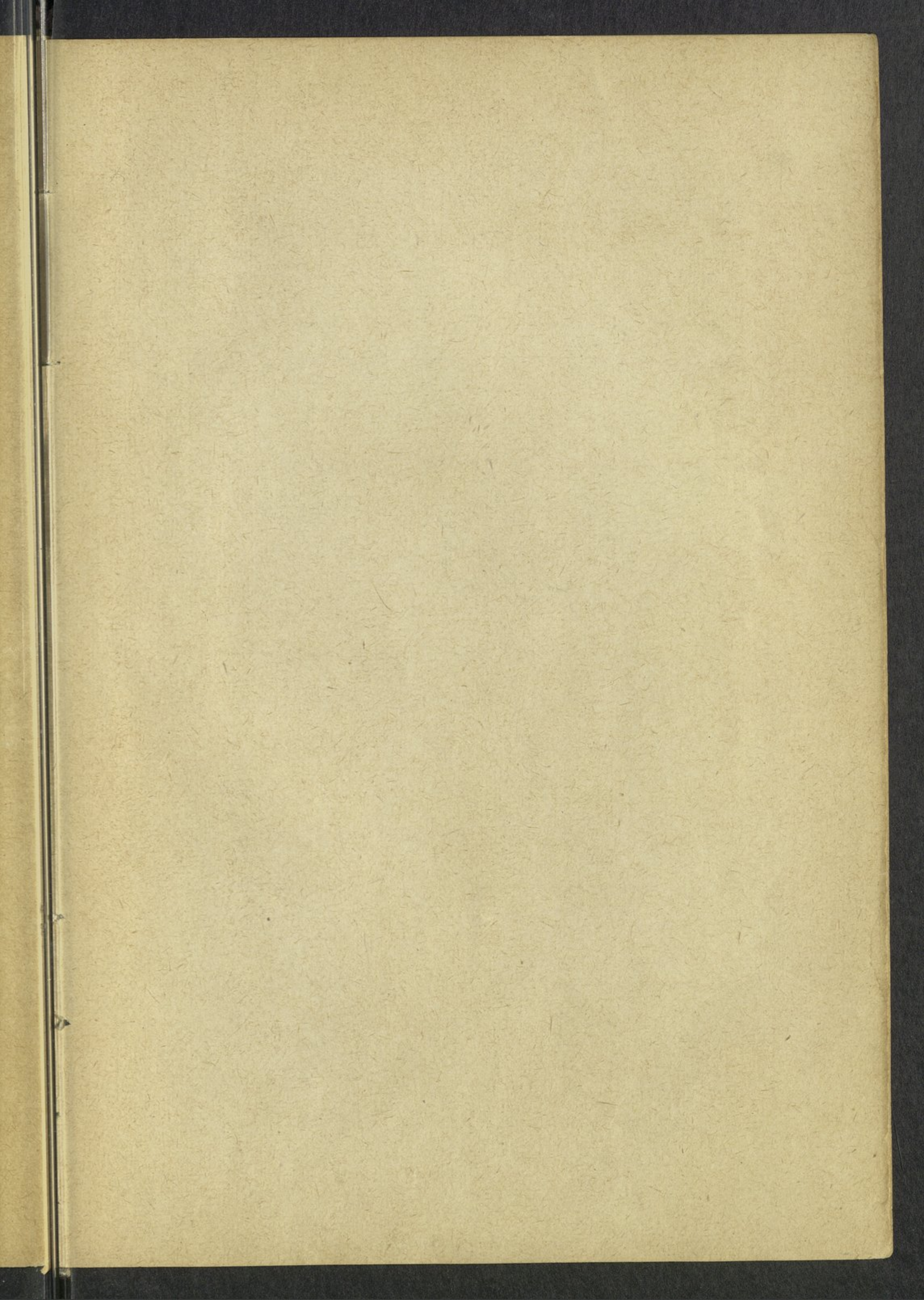
عرفت النور

ورأيت الجمال

ولكنى . . احترقت !



فى الدين



يبدو عمل الدين ضرورة للبشر . إنى ما كتبت هذه الكلمة اليوم إلا لألفت نظر رجال الدين إلى وجوب التسامح والهدوء كلما قام باحث يتكلم فى الدين عن طريق العقل ، فان الشرق اليوم مقبل على حياة علمية واسعة مهادها المعاهد والجامعات ، ولابد لنماء ملكة العقل من التفكير الحر الطليق ، كما أنه لابد لحياة ملكة القلب من الشعور الحار العميق . فليترك رجال الدين المفكرين يفكرون كما يشاؤون ، ويثرثرون كما يريدون ، ويعرضون بضاعتهم الكلامية التى هى كل بهرجهم الآدمى الأجوف ، فإن كل هذا الضجيج لن يصل خبره إلى القلب الذى لا يفتر لحظة عن التسبيح رغماً عنهم بالعقيدة التى ركبت عليها حياته النابضة ...

الدفاع عن الاسلام

قرأت لثلاث عشرة سنة خلت (١) قصة ڤولتير التمثيلية «محمد»، فخجلت أن يكون كاتبها معدوداً من أصحاب الفكر الحر، فقد سب فيها النبي العربي سباقبيحاً عجبت له، وما أدركت له علة. لكن عجبي لم يطل، فقد رأيته يهديها إلى البابا بنوا الرابع عشر بهذه العبارات:

« فلتستغفر قداستك لعبد خاضع من أشد الناس إعجابا بالفضيلة، إذ تجرأ فقدم إلى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية، وإلى من، غير وكيل رب السلام والحقيقة، أستطيع أن أتوجه بنقدي قسوة نبي كاذب وأغلاطه ؟ فلتأذن لي قداستك في أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه، وأن أجرؤ على سؤالك الحماية والبركة، وإني مع الإجلال العميق أجثو وأقبل قدميك القدسيتين » (فولتير ١٧ أغسطس ١٧٤٥)

وعلمت في ذلك الحين أن روسو كان يتناول بالنقد أعمال ڤولتير التمثيلية، فاطلعت على ما قال في قصة « محمد » على أجد ما يرد الحق إلى نصابه، فلم أر هذا المفكر الحر أيضاً يدفع عن محمد ما ألصق به كذباً، وكأن الأمر لا يعنيه، وكأن ما قيل في هذا النبي لا غبار عليه ولا حرج فيه، ولم يتعرض للقصة إلا من حيث هي أدب وفن. ولقد قرأت بعد ذلك رد البابا بنوا على ڤولتير،

---

(١) من تاريخ الطبعة الاولى لهذا الكتاب في عام ١٩٣٨

فألفيته رداً رقيقاً كيساً لا يشير بكلمة واحدة إلى الدين . وكله حديث فى الأدب . فعظم عجبي لأمر فولتير ، وسألت نفسي طويلا: أيستطيع عقل مثقف كعقل هذا الكاتب العظيم أن يعتقد ما يقول ، دين تبعه آلاف الملايين من البشر على مدى الأجيال ، هو فى نظره حقا دين كاذب؟ ومبادىء إنسانية كالتى جاء بها الإسلام هى عنده حقا مبادىء بربرية ؟ أم إنه التملق والزلفى والنفاق . وإن الزمن والتاريخ يضعان أحيانا أقنعة زائفة على نفوس تزعم أنها خلقت للدفاع عن حرية الفكر .

منذ ذلك اليوم وأنا أحس كأنى فجعت فى شيء عزيز لدى : الإيمان بنزاهة الفكر الحر . ولقد كنت أحياناً ألتمس الأعذار لفولتير ، وأزعم أنه قال ماقال لا عن مجاملة أوملق ، بل عن عقيدة وحسن طوية استناداً إلى علم خاطىء بأخبار النبى ، ولكن كتابه إلى البابا كان يتهمه اتهاما صارخا ، ويدع . مجالا للشك فى دخيلة أمره . إنى قرأت لفولتير كتباً أخرى كانت تكشف عن آراء حرة حقاً فى مسائل الأديان ، وتنم عن روح واسعة الآفاق تكره التعصب الذميم ، فما باله عندما عرض لذكر محمد والإسلام كتب شيئاً هو التعصب بعينه ، تعصب لدينه ، ذهب فيه إلى حد السجود وتقبيل الأقدام ، لا لرب العزة والخلق ، بل لبشر هو رئيس الكنيسة التى ماأرى أن فولتير كان فى ذات يوم من خدامها المخلصين ! هى الأطماع التى كانت تدفع فولتير فيما أرى إلى التمسح

بأعتاب الملوك والبابوات ، ولقد يقدم ثمناً لذلك أفكاره الحرة أحياناً . منذ ذلك الحين وفولتير عندى متهم ، ولن أبرئه أبداً ، ولن أعده أبداً من بين أولئك العظام الذين عاشوا بالفكر وحده وللفكر . وأحسب أن التاريخ العادل سوف يحكم عليه هذا الحكم . على أن الذى يدعو إلى الدهش أكثر من كل هذا أن الشرق والإسلام وقفا من الأمر موقف النائم الذى لا يعى ولا يشعر بما يحدث حوله ، فلم أر كاتباً من كتاب الإسلام قام فى ذلك الوقت يدفع عن دينه هذا الهراء الذى قال فولتير ؟ ويقذف فى وجه هذا الكاتب بالحقائق الباهرة القاطعة ، أو أن مؤلفاً وضع كتاباً يبرز فيه شخصية النبى العظيمة واضحة جلية ، لقد كان الشرق فى ليل هادىء بهيم لم تثر فيه حركة فولتير يومئذ ساكناً ، ولكن اليوم قد تغير الأمر ، ولاحت فى أفق الشرق خيوط الفجر ، وقام فى هذا القرن كتاب يمجدون عقيدتهم وهم يعلمون أن فى ذلك تمجيداً للحق وللشرق ، فان المسألة ليست مسألة دين فقط ، إنما هى أيضا مسألة جنس وقومية ؛ وإذ تقول أوربا : « الإسلام » فانما تعنى فى غالب الأحيان « الشرق » ، والدفاع عن الاسلام لم يكن فى كل الأحيان دفاعا عن عقيدة وديانة ، إنما هو دفاع عن حياة تلك الكتلة التى يسميها الغربيون : « الشرق » . إن الحروب الصليبية فى حقيقتها لم تكن إلا حرب الغرب على الشرق ؛ وإن الفتح الإسلامى عندما بلغ فرنسا وهدد أوربا لم يكن فى الواقع

إلا حرب الشرق على الغرب . هذا المد والجزر بين الغرب والشرق يفهمه مفكرو الأوربيين تمام الفهم ، ويحسبون له الحساب ، ويعملون دائماً على أن تكون الغلبة لهم آخر الأمر ، أو أن يطيلوا على الأقل أمد غلبتهم إن كان لابد من تبدل الحال ومن دوران الفلك طبقاً لناموس أعلى لاقبل لهم به . فالدفاع عن شخصيتنا وعقيدتنا دفاع عن حياتنا ، وإن الكتابات التي توجه لهذا الغرض النبيل ينبغى أن يكون لها علينا حق المؤازرة والتعضيد ، وإنى لست بناقد منقطع للنظر فى أعمال المؤلفين وتقدير قيم ما يكتبون ، ولكنى أريد أن أشير إشارة سريعة الى صوت من الشرق ارتفع فى العصر الحديث محتجا مدافعاً : هو صوت الأستاذ الإمام محمد عبده ، فى رده على « هانوتو » . فلقد نشر جابريل هانوتو الكاتب والوزير الفرنسى يوماً مقالة جاء فيها :

« قد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية . اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الافريقية بسرعة لاتجارى ، حاملين فى حقائبهم بعض بقايا تمدين البيزنطيين (يونان الشرق) ثم تراءوا بها على أوربا ، ولكنهم وجدوا فى نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها إلى آسيا ، بل أقرب فى الصلة إلى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم ألا وهى المدنية الآرية المسيحية . ولذلك اضطروا إلى الوقوف عند الحد الذى اليه وصلوا ، وأكرهوا على الرجوع إلى إفريقية حيث ثبتت فيها أقدامهم أحقاباً متعاقبة » . ثم قال فى موضع

آخر: «وقصر فريق منا بحثه وحكمه على ماشاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحى والإسلامى، فرأى فى الإسلام العدو الألد والخصم الأشد. قال المسيو كيمون فى كتابه «باتولوجيا الإسلام»: ان الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك فيهم فتكا ذريعاً، بل هى مرض مروّع وشلل عام، وجنون ذهولى يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء، ويدمن معاقرة الخمور ويجمح فى القبائح. وما قبر محمد فى مكة إلا عمود كهربائى يبث الجنون فى رؤوس المسلمين ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الهستيريا (الصرع) العامة والذهول العقلى، وتكرار لفظة الله إلى مالا نهاية، وتعود عادات تنقلب إلى طباع أصلية ككراهية لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى، والجنون الروحانى، والليمانيا، والماليخوليا وترتيب مايستنبط من أفكار القسوة والفجور فى اللذات» الخ.

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية، وحيوانات مفترسة كالفهد والضبع، كما يقول المسيو كيمون: «وأن الواجب إبادة خمسهم». كما يقول أيضاً: «الحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع ضريح محمد فى متحف اللوفر». وهذا أيضاً قوله: «.. وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشرى.. أليس كذلك؟ ولكن قد برح عن خاطر الكاتب أنه يوجد نحو ١٣٠ مليوناً مسلماً(١)، وأن من الجائز أن

(١) عدد المسلمين الحقيقى فى العالم يبلغ نحو ٤٠٠ مليون.

يهب هؤلاء « المجانين » للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم » الخ الخ .

ماكاد يظهر هذا الـكلام فى صحيفة المؤيد ، حتى قام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لساعته مجرداً قلمه وكتب نحو أربع مقالات هى أقوى ماقرأت دفاعا عن الإسلام ، وإظهاراً لحقيقة مبادئه الخافية على أغلب الأوربيين. وقد رد على هانوتو فيما أوردناصائحاً :

« ما هذا التمدين الآرى الذى كانت عليه أوربا عندما انتقص أطرافها المسلمون ؟ هل كانت تلك المدنية هى التسافك فى الدماء ، وإشهار الحرب بين الدين والعلم ، وبين عبادة الله وبين الاعتراف بالعقل ، نعم هذا هو الذى كان معروفا عند الغربيين وقت ماظهر الإسلام !

« ماذا حمل الإسلام إلى أوربا ، وماهى المدنية التى زحف عليهم بها فردها ؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا من الآريين ، زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين . نظف جميع ذلك ونقاه من الأدران والأوساخ التى تراكمت عليه بأيدى الرؤساء فى الأمم الغربية لذلك التاريخ ، وذهب به أبلج ناصعاً بهر به أعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا فى ظلمات الجهالة لايدرون أين يذهبون.

« إنى أكيل لمسيو هانوتو إجمال بإجمال ، والتفصيل لايجهله قومه ، وكثير من منصفيهم لم يستطع إلا الاعتراف به .

« إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها إلى المدنية

الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها. وعمل رجال الدين المسيحي على إطفائها مدة قرون فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. واليوم يرعى أهل أوربا ما نبت في أرضهم، بعد ما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدي أهل دينهم في سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة».

ثم رد الإمام في موضع آخر: «يجب على الباحث في الاسلام أن يطلبه في كتابه: كما يجب عليه أن يطلب آثاره والإسلام إسلام، والمسلمون مسلمون، ولو استشم مسيو (كيمون) الذي استشهد هانوتو بكلامه ريح العلم لما استفرغ ذلك القذر من فيه، فسخافة رأيه وقلة أدبه تكفيه.

«من أين أتى المسلمون وكيف دخل عليهم في عقائدهم بالتشبيه، وفي عوائدهم بالتمويه؟ وممن تعلموا الافتراس، وعمن أخذوا الضراء بالشهوات؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون. والله من ورائهم محيط.

«اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى سقطوا في مساقطهم، وطارحوا الأوهام حتى انجروا إلى مطارحهم، وباءوا بما كان لهم وما عليهم...

«حدثت في الدين بدع أكلت الفضائل وحصدت العقائد، وترامت بالناس إلى حيث يصب عليهم ما استفرغه (كيمون).

«أما لو رجع المسلمون إلى كتابهم واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم لسلمت نفوسهم من العيب، وطلبوا من أسباب السعادة

ماهداهم الله إليه فى تنزيله على لسان نبيه ، ومهده لهم سلفهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم ، واستجمعت لهم القوة ، ودبت فيهم روح الفتوة ، وكان ما يلقاه هانوتو وكيمون من دين صحيح شراً عليهما مما يخشونه من دين شوهته البدع .

« يرى كيمون أن يخلى وجه الأرض من الإسلام والمسلمين ، ويستحسن رأيه هانوتو لولا مايقف فى طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين ، وبئسما اختار لسياسة بلدهما أن يظهر اضغنهما ، ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما .

« أما فليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما أن الإسلام إن طالت به غيبة ، فله أوبة ، وإن صدعته النوائب فله نوبة ، وقد يقول فيه المنصفون من الانكليز مثل (إسحق طيلر) وهو قس شهير ورئيس فى كنيسة : « إنه يمتد فى إفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره والشجاعة والاقدام من أنصاره »

***

نعم لقد آن للغرب أن يحترم عقائد الشرق . بل قد آن للغرب أن يدرك أن محمداً والاسلام هما من منابع الفكر الحر وطفرة من طفرات البشرية المتحررة . والدليل على ذلك شخصية النبي ذاتها وغرضه فى الدعوة إلى دين جوهره إقناع النفس بالحقيقة العليا .

فمحمد هو أول نبي مجد البشرية بأن أعلن أنه بشر ، وأن دينه هو دين الفطرة البشرية ، وقاوم أولئك السفهاء الذين كانوا يطلبون

إلى الأنبياء أن يثبتوا نبوتهم بالمعجزات فأثموا فى الفكر البشرى قبل أن يأثموا فى حق الدين .

فالمعجزة أى الاتيان بعمل خارق للمعتاد لاتدل على شيء ولاتثبت نبوة ولاتدحضها . فإن من الكهان أو بسطاء الناس من يملكون أحياناً تلك القوى الخارقة فى أجسامهم أو عقولهم أو أرواحهم دون أن يكونوا من أجل ذلك أنبياء . إن النبى ليس فى حاجة إلى معجزة كى يكون نبياً . إنما النبى من حُمّل رسالة علوية لاينصرف عن الحياة حتى يؤديها ، ومن فضل محمد أنه لم يشأ أن أن يقنع الناس بغير ذلك ، فقد بلغهم رسالته واعتمد فى إثباتها الملكات البشرية المجردة المتحررة .

فلقد جاء فى كتب السيرة أن المسلمين عطشوا أثناء مسيرهم إلى غزوة تبوك فأمطرتهم السماء فقال بعضهم : (إنها معجزة) ، فصاح محمد من فوره : « إنما هى سحابة مارة » . وأن الشمس كسفت يوم مات ابنه إبراهيم فقال الناس : (إن هذا الكسوف معجزة) فصاح محمد : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته » . هذا كلام محمد الذى قال الغرب إنه نبى كاذب ! ! فهل يمكن أن يكون هذا جواب نبى كاذب ؟ ؟

إن محمداً قد فهم حقيقة النبوة ، ووعى معنى الحقيقة العليا وأدرك أن أكبر معجزة فى هذا الكون هى أن لا يوجد فى الكون معجزات ، وأن كل شيء يسير طبقاً لنظام دقيق . وإذا قيل نظام قيل قانون ،

وإذا قيل قانون قيل عقل مدبر، وهذا العقل واحد أحد تبدو سمته فى إدارة الأجسام غير المحدودة فى العظم كما تبدو فى إدارة الأجسام غير المحدودة فى الصغر ، ذات اليد العلوية وعين أثرها فى كل شىء، يد واحدة لا تتغير وقانون واحد لا يتغير . إن محمداً قد تأمل الطبيعة كثيراً أيام عزلته الطويلة فى غار حراء ، وفكر مليا فى نظامها العجيب فكشف عن بصيرته وبصره ، فامتلأ قلبه بالله الواحد ، كما اقتنع عقله بوجوده ، فجاء دينه ديناً كاملا ، صادقاً فى نظر القلب والعقل معاً . ولئن كان على الأرض نبى حرص على أن يجاهر بمحبة العلم ومصادقته ولم يخش دينه العلم ، ولم يضطهد العلماء ، فهو « محمد » الذى قال : « فضل العلم خير من فضل العبادة » « اطلب العلم ولو فى الصين » وكثيراً من الأحاديث التى تثنى على العلم وتحض عليه . ذلك أن مصدر إقناع العلم ومصدر اقناع محمد واحد : الكون وملاحظة مافيه من إبداع ينم عن عقل مبدع هائل.

فى كتاب حديث للعالم أنشتين فصل ذكر فيه رأيه فى الدين ، فقال إنه يعتنق ما يسميه «الديانة الكونية » تلك الديانة التى تملأ قلب كل عالم انقطع لتأمل « ذلك التناسق العجيب بين قوانين الطبيعة وما يخفى من عقل جبار لو اجتمعت كل أفكار البشر إلى جانبه لما كونت غير شعاع ضئيل أقرب القول فيه أنه لا شىء » .

لا ريب عندى أن إحساس أنشتين نحو الكون والله هو عين إحساس محمد يوم كان يتحنث فى غار حراء قبل نزول الوحى .

إنما الأنبياء والعلماء قلوب واعية تشعر بجلال الله . ولا يمكن لنبى أن يكون نبياً إلا أن يشعر من تلقاء نفسه بعظمة الخليقة ويتحرق شوقاً إلى معرفة سرها ، ولا يزال الشوق بقلبه حتى يكشف له الصانع الأعظم عن بعض نوره ، ويوحى إليه بنشر هذا النور على الانسانية . إنى كلما تأملت شخصية محمد مجردة ثبت إيمانى بأن الخصومة المعروفة بين العلم والدين ليس لها فى الحقيقة وجود ، وإن الدين الحق لا يتعارض والعلم الحق . . . بل إن الدين والعلم شىء واحد ، كلاهما يطلب نور الله ويريد وجهه ، وكلاهما يعى ويؤمن ويلهج بتناسق الوجود ووحدة قوانينه ودلالة وحدة الوجود على وحدة الخالق : ولم يظهر نبى حق ولا عالم حق شعر بغير ذلك . إنما الفارق بين العلم والدين هو فى السبل التى يسلكها كل فى الدنو من الله . ومن قال إن وسائل العلم ينبغى أن تماثل وسائل الفن أو وسائل الدين ؟؟

إن الطرائق والسبل يجب أن تظل مختلفة مميزة لا يختلط بعضها ببعض إنما المصدر واحد دائماً والغاية واحدة . فما الدين والعلم والفن إلا خيوط ثلاثة كتب على بشريتنا القاصرة العمياء أن تتمسك بها لتهتدى إلى ذلك النور الذى لا بداية له ولا نهاية : الله . . .

نجم أحمد !

وقف اليهودى على أحد آطام يثرب ناظراً إلى السماء يعلن إلى بنى قومه ميلاد النبى فى صيحة مدوية : « طلع الليلة نجم أحمد! »

عجباً من العجب ! أحقا لم ير ذلك اليهودى نجم أحمد قبل تلك الليلة ؟ يخيل إلى أن الناس فى ذلك الزمان كانوا يسيرون مطرقين كالعميان . إن نجم أحمد طالع فى كل لحظة يشع نوراً من بدايه الكون لو أن للكون بداية ، إلى نهاية الزمن لو أن للزمن نهاية ! نجم أحمد هو الحق . والحق لا يبدأ ولا ينتهى . ولا يظهر ولا يختفى . إنه موجود .

إذن ما الإسلام ؟ وكيف ظهر الإسلام بظهور محمد والمسيحية بظهور المسيح واليهودية بظهور موسى ؟ هنا لزم للتفريق بين الحق وثوب الحق . بين المعنى والأسلوب . ما الإسلام إلا أسلوب من أساليب الحق ، ورداء من أرديته . كذلك المسيحية وكذلك اليهودية . وكذلك كل دين من تلك الأديان السماوية التى تتحد فى الجوهر وتختلف فى المظهر . وهنا نستطيع أن نفاضل بين الأساليب ، وهنا فقط يجوز لنا أن نفاخر بالدين الأخير ، إذ جاء بأسلوب جامع مانع ، سهل ممتنع ، محكم الوضع ، مصقول التراكيب . فالمفاضلة لا تكون فى الجوهر ، لأنه واحد أحد ، إنما المفاضلة فى الأثواب .

وهنا يخطر على البال سؤال : هل تجوز المفاضلة بين الأثواب

وهى كلها من صنع الخالق المعصوم الذى لا ينبغى أن يخطىء ولا أن يصحح ماسبق أن صدر عنه . أو أن جوهر الحق وحده من شأن الله ، أما الأسلوب الذى يعرض به على الناس فهو من شأن الرسل والأنبياء ؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال يجب النظر فى قضية أخرى : هل للطبع والمزاج والخلق الذى ركب عليه النبى أو الرسول أثر فى أسلوب رسالته ؟ هل شخصية الرسول تطبع بخاتمها شكل الدين الذى يدعو إليه ؟ وهل لظروف العيش التى نشأ عليها النبى دخل فى اتخاذ « القالب » الذى أفرغ فيه « موضوع » النبوة ؟ إن أجب على كل هذا بالإيجاب فان التبعة فى « أسلوب » الأديان تقع بلا امراء على كاهل الأنبياء . والنبى إذن مسئول عن الطريق الذى اتبعه للابانة عن « الحق » مسئولية ملقاة على « شخصيته » التى صبغت الشريعة بصبغتها . وعلى قدر المسئولية تكون العظمة ، وعلى قدر « الشخصية » ذات الوجود الفعلى تقاس العبقرية العظمى والمجد الأسمى .

إن صح هذا الكلام فإنى أستطيع القول أن النبى أو الرسول لا يصل إلى الحق متجرداً عن شخصيته . بل إنه لا يستطيع الدنو من الحق إلا عن طريق شخصيته . كذلك فعل النبى العربى ، وكذلك فعل المسيح وموسى . وكذلك كل نبى لا يستطيع أن يرى الحق إلا عن طريق إحساسه وطبعه وعقله . . وهى ملكات تختلف باختلاف الأشخاص . وهنا يبدو سر تباين الأساليب التى

جرت عليها الأديان في عرض جوهر الحق على الناس . ولعل محمداً هو أكثر الأنبياء حرصاً على تنبيه الناس في كل مناسبة إلى وجود شخصيته المستقلة ، فهو لا يفتر يذكرهم أنه بشر خاضع للقوانين التي يخضع لها البشر ، وأنه لا يتصل بالله هذا الاتصال الخاص الذي قصر على الرسل إلا إذ يشاء الله ، وأنه في كثير من حياته الخاصة أو العامة حيث لا وحي يهديه السبيل يتصرف كما يتصرف البشر . هكذا فعل في معارك بدر وأحد والخندق إذ كان يستمع إلى مشورة أصحاب الرأي من رجاله . وهكذا فعل إذ لم يخف ميله إلى الطيب والنساء . بل إنه أعلن ذلك الميل لعلمه أن الميول من مميزات الطبع التي ركبها الخالق في البشر . والنبي الحق أجل من أن يكتم مزاجا أو طبعا ، وهو يعرف أن المزاج والطبع من مقومات الشخصية .

وهنا تبدو حكمة الإسلام ظاهرة بين سائر الأديان ، فهو دين بسيط فطري لم تدخله صناعة ،كل شيء فيه صادق خالص صاف . ليس فيه إنكار لقوانين الطبيعة ، بل فيه مسايرة حكيمة ومصاحبة رشيدة لكل ما فرضه النظام العلوي على البشر من حيث تركيبهم المادي والمعنوي . ذلك أن أسلوب محمد في إدراك « الحق » كان أسلوباً مستقيما . فهو قد أدرك أن «معنى» الحق إنما هو «السبب» الذي يصدر عنه الناموس الأكبر ، وأن روح الوجود هو «النظام» إذ لا يتصور أن تكون «الفوضى» من عناصر الخليقة .

بل إن «الفوضى» إذا حلت فى نظام الوجود انقلبت نظاماً ، لأنه لا وجود بلا نظام ، بل إن كلمة «الفوضى» لا محل لها إلا فى أدمغة البشر يعبرون بها عن كل ما يحدث شيئاً من الخلل فى ترتيب حياتهم الضيقة المحدودة . اما الكون غير المتناهى فلا يعرف غير النظام ، الذى فرض على الانسان والحيوان والجماد . هل من سبيل إلى مخالفته ؟ إن مخالفة النظام الطبيعى للإنسان والأشياء مخالفة لله ، وكل دين يقف فى وجه النظم الطبيعية لا يمكن أن يكون من عند الله ، لأن الله لا يناقض نفسه . كل هذا فهمه محمد ووعاه ببصيرته النورانية النافذة ، فجاء أسلوب الاسلام فى الافصاح عن «الحق» واضحاً جلياً ، لا يأمر بالرهبنة ، ولا بالفرار من الدنيا ، ولا بتعذيب الجسد من أجل الله ، لأن الله لا يأمر بتحطيم ما بناه.

إنما يريد الله أن تعيش الأحياء طبقاً لقوانين الحياة التى وضعها لها ، وأن تجاهد فى سبيل هذه الحياة ، وأن تتغلب على عناصر الفناء بما هيأه لها من مناعة طبيعية ، أو مناعة اكتسابية . والدين هو أداة المناعة الاكتسابية لمكافحة عناصر الفناء المادية والأدبية.

فلئن كانت غاية الدين عند البشر توفير أسباب الحياة الصحيحة ، والدنيا الصحيحة خير تمهيد لآخرة صحيحة ، فإن الاسلام بلا مراء هو دين الصحة فى كل شىء . فهو ذو صوت جهير فى الدعوة إلى صحة الجسم وصحة العقل وصحة العقيدة . ولئن كان ماضى هذا الدين السليم مجيداً ، فإن مستقبله ولا ريب يشير

بازدهار يعم الأرض لو استطعنا أن نجرده من سفسطة الجامدين، وننقيه من ثرثرة المتنطعين، وننقذه من احتكار الجهال المحترفين؛ وأن نرده إلى مبادئه البسيطة الصافيـــة التى لا تصدم تقدماً ولا تعارض التطور الطبيعى للأذهان والأشياء. وقتئذ فقط نستطيع أن نغزو به كل النفوس وكل العقول، فإن الدين «المثالى» هو الدين البسيط. وهل أبسط من الإسلام شريعة وهى لا تعرف «رجال دين» ولا تقر وجود أناس يجعلون من هداية الناس حرفة يأكلون منها ويكنزون، ومن «الدين» مهنة تدر الرزق وتعطى متاع «الدنيا»؟ إن أولئك الذين يجعلون «الدين» سلماً «للدنيا» لا «الدنيا» سلماً «للدين» قد طردهم الاسلام بعيداً عن حظيرته، وجعل الدين سمحاً باسماً باسطاً ذراعيه لكل الناس لا احتراف فيه ولا احتكار. نعم، إن حاجة البشر كافة قد أصبحت متجهة إلى هذا النمير العلوى الصافى من المبادئ البسيطة المستقيمة، التى لا خداع فيها ولا تمويه ولا تناقض ولا تشويه ولا إخلال ولا تدخل فى قوانين الطبيعة الأساسية التى وضعها المبدع الأعظم. إذا تم ذلك للاسلام فى هـذا العصر فلسوف يأتى يوم يقف فيه أهل الأرض أجمعون من كل جنس ولون على آطام بلادهم يصيحون فى كل حول صيحة ذلك اليهودى:

«لقد طلع نجم أحمد!».

سر العظمة

ينبغى لمن أراد أن يعلم سر عظمة « محمد » أن يتخيل رجلا وحيداً فقيراً تمكنت من قلبه عقيدة فنظر حوله فاذا الناس كلهم فى جانب ، وإذ هو بمفرده فى جانب . هو وحده الذى يدين بدين جديد بينما الدنيا كلها : أهله وعشيرته ، وبلده وأمته ، والفرس والروم والهند والصين وكل شعوب الأرض لا يرون ما يرى ، ولا يشعرون له بوجود . هذا موقف النبى ، وهذا موقف العالم : رجل عاطل من كل قوة وسلاح ، إلا امضاء العزيمة وصلابة الايمان أمام عالم تدعمه قوة العدد والعدة ، وتؤازره حرارة عقيدة قديمة شب عليها وورثها عن أسلافه ، واتخذت لها قرارة نفسه وأعماق تاريخه جذوراً ليس من السهل اقتلاعها على أول قادم . فالنبى هو ذلك القادم الذى يريد أن يقتلع تلك الجذور ويضع مكانها غرساً جديداً . والعالم القديم هو ذلك السادن القوى لتلك الشجرة العتيدة ، يذود عنها وتأبى كرامته أن يفرط فى ورقة منها إذن « مبارزة » بين فرد أعزل وبين عصر بأسره يزجر غضباً : عصر زاخر بأسلحته ورجاله ، وعقائده وفقهائه وعلمائه ومشاهيره ، وتقاليده وماضيه ، ومجده وتاريخه ... هذه المبارزة الهائلة العجيبة من يستطيع أن يقدم عليها غير نبى . . . على أن المعجزة بعد ذلك ليست فى مجرد التحدى ورمى « القفاز » وارتفاع ذلك الصوت

الضعيف على شاطىء ذلك البحر الطامى العجاج : « أن اترك أيها العالم دينك القديم واتبعنى » . ذلك الصوت الذى لاجواب عليه إلا سخرية طويله وقهقهة عريضة . . . وليست المعجزة كذلك فى مجرد شفاء الأصم وإبراء الأعمى ، إنما المعجزة حقيقة هى أن يخرج مثل هذا الرجل الوحيد الأعزل من هذه المعركه المخيفة ظافراً منتصراً ، فإذا هذا العالم العتيد كله يجثو عند قدميه منكس الأسلحة وقد انقلبت سخريته خشوعاً طويلا ، وقهقهته صلاة عميقة . كيف ربح هذا الرجل الموقعة ؟ ما وسائله ؟ هل كانت له خطط وأساليب وقوة من شخصه مكنته من النصر ؟ أو أن الله هو الذى نصره دون أن يكون لشخصية النبى دخل فى الانتصار ؟ عقيدتى دائما أن شخصية النبى لها أثر كبير .

وهنا معنى الاصطفاء ، فالله يختار من بين البشر عظيما له كاهل يحتمل عبء الرسالة ، ويوحى إليه بالعقيدة ثم يتركه يجاهد فى سبيلها . فالنبى ليس آلة تحركها يد الله فى كل خطوة ، إنما هو رسول عهد إليه تبليغ دين والعمل على إذاعته بين الناس بالوسائل التى يراها الرسول كفيلة ببلوغ الغاية . فالله لايريد نشر الأديان للبشر إلا بالوسائل البشرية . إنه لا يتدخل بقدرته العلوية فيفرض الدين فرضاً على الناس كما تفرض عليهم الزوابع والأمطار ، ولكنه يحب دائما أن يخلى بين «الدين» وبين «الناس» حتى يتغلغل الدين من تلقاء نفسه فى نفوسهم بجمال نوره وحده ، ولكن أعين الناس

لاترى كل الأحيان فهم يعيشون فى أعماق ماضيهم كالأسماك العمياء فى أغوار المحيطات . هنا تبدأ متاعب النبى ، وهنا تظهر المعجزة الحقيقية وهى إبراء الأعمى لا أعمى واحد ولكن ملايين العميان . فهو الذى يفتح أبصارهم على نور طالما جحدوا وجوده : نور الدين الجديد الذى أتى به . وهنا ينبغى التساؤل . كيف استطاع النبى أن يرى الناس مايرى ، وأن يقنعهم بما جاء به؟ الجواب بسيط : حياة النبى وخلقه . إن الناس لا تقتنع بالكلام وحده . إنما يؤثر فيهم الفعل والمثل . إن الناس يوم أيقنوا أن محمداً لا يسعى إلى غنى ولا إلى ملك ، وأنه يريد أن يبقى فقيراً يشبع يوماً ويجوع أياماً ، وأن كل تلك المخاطر التى يتعرض لها فى كل خطوة ، وأن كل ذلك الهوان الذى يناله من سفهاء القوم وأكابرهم... وأن كل ذلك الجهاد ملأ به حياته بأكملها إنما هو سبيل « العقيدة » التى يقول لهم عنها ، منذ ذلك اليوم الذى اجتمع فيه كبراء أمته وعرضوا عليه ثروتهم ووعدوه أن ينصبوه عليهم ملكا على شرط أن يتركهم على دين آبائهم ، فرفض المال والمجد والسلطان ، وأبى إلا شيئاً واحداً صغيراً « أن يؤمنوا معه بفكرته » ، عند ذاك أدرك أولئك القوم جميعا أن الأمر جد لا هزل ، وأنهم أمام رجل لا ككل الرجال ، وأن الآدمى الذى لا يغريه فى الحياة شىء ، ولا يعيش إلا من أجل « فكرة » لا تقوَّم بمتاع من أمتعة هذه الدنيا الرخيصة ، و « جمال » يضحى فى سبيله خير ما فى الحياة . أمام هذا الرجل أخذ الناس يفكرون

مليّا وثبت لمن كان قد ارتاب فى أمره أن مثله لا يمكن على الأقل أن يكون أفاقا يعمل لمغنم ، إنما هو رجل صادق مخلص ، لا مطمع له من تلك المطامع التى يسعى إليها الناس فى هذه الدار . عند ذاك بدأ كثير من الناس يجلسون إليه ويصغون إلى كلامه .. فوسيلة النبى الأولى وخطوته التى نزل بها الميدان ، هى إقناع هذا الخصم الصاخب من الخلق أنه مجرد عن الغايات الدنيوية . وهنا كانت قوته . فان أمضى سلاح فى يد رجل يريد أن يقارع البشر ، هو أن يواجه البشر بيد خالية من مطامع البشر !

ولكن هذا لا يكفى . فالناس قد تقتنع بأمانة النبى وقد تستمع إلى ما يقول ، ولكنها لا تستطيع أن تنبذ فى يوم وليلة كل ماضيها لتؤمن بهذا الكلام الجديد . إن صدر الجماهير كصدر المحيط العميق ذى الماء الكثيف ، يدفع إلى سطح كل جسم غريب ، ولا ينفذ إلى أعماقه إلا شىء ذو وزن ، بعد زمن وجهد . وإن الناس لشديدة الحرص على ما تسميه كنوز تراثها وتقاليدها . فما أدراهم أن هذا الكلام الجميل الذى جاء به هذا النبى ذو الحديث الطلى ليس إلا بضاعة زائفة ووهما خلابا لعب بلب هذا الرجل الأمين المسكين فريسة مرض ومس؟ ما هو الأجدر بهم عندئذ؟ يطلبون له الطب حتى يبرأ » أو يلقون بكنوزهم ويتبعون حلمه ومسه . لقد وضعت المسألة إذن وضعاً آخر ، واتخذت الحرب ميداناً جديداً . ماذا يصنع النبى ؟ لا بد له من أن يبدد ضباب الشك المخيم على الأذهان حتى

يصل إليها نور الدين . هنا صفتان لازمتان : الصبر والمثابرة ، فان العاقبة فى الحرب لمن صبر وثابر . وإن أمامه لخصما جديداً ، هو الشك الذى يقوم الآن فى رؤوس الناس . فان كان حقيقة رجلا عظيما فليقتل هذا الشك بمفرده . وماهو بشك رجل واحد ، إنما هو شك أمة طامية . ولقد جاهد الرسول فعلا فى كل لحظة من لحظات حياته ، إلى أن استطاع ذات يوم أن ينقل العقيدة التى فى قلبه حارة قوية إلى قلوب الناس جميعاً . وهنا كان النصر الأخير تمت المعجزة . وتمكن هذا الرجل الواحد من أن يضع العالم فى قبضته ، ويخضعه لفكرته ، ويطبعه إلى أبد الآبدين بخاتمه ، ويدخل إلى صدره أشعة نور جديد .

المرأة فى شباب النبى

لم يرو لنا التاريخ أن النبى العربى عرف امرأة أو تحرك قلبه لامرأة قبل خديجة . فلقد كانت حياته حتى الخامسة والعشرين حياة الشاب الهادىء البعيد عن النساء ، العاكف على عمله ، يرعى الغنم فى الفلاة ويلجأ إلى التأمل العميق . فلم يكن للهو والمرأة حتى ذلك الوقت مكان من اهتمامه أو تفكيره . كل ماورد مع ذلك من أخبار لهو الشباب ، أنه قال ذات ليلة لفتى من قريش كان معه بأعلى مكة يرعيان غنم أهلهما : « أبصر لى غنمى هذه الليلة حتى أسمر بمكة كما يسمر الفتيان » ثم خرج . فلما جاء أدنى دار من دور مكة سمع غناء وصوت دفوف ومزامير . فجلس يلهو بذلك الصوت حتى غلبه النعاس فنام مكانه ولم يوقظه إلا مس الشمس ، ورجع . فسأله صاحبه : « مافعلت » فأخبره بما كان . وكان هذا شأنه فى كل ليلة من مثل هذه الليالى .

كانت العفة المطلقة إذن هى صفته الغالية وقتئذ وكان الزهد والحلم والصبر والتواضع ما ميزه عن بقية الشبان وما جعل قومه يسمونه « الأمين » . ما الذى كان يشغل رأس الشاب محمد فى تلك السن مادام اللهو والمرأة لا محل لهما عنده ؟ أتراه كان يحس فى قرارة نفسه بمصيره العظيم ؟ نعم إن هذا الفتى قد شب فى عصر شاعت فى جوه كهرباء غريبة مشحونة بالأساطير والتنبؤات عن قرب

ظهور نبي من العرب اسمه (محمد) وكان مصدر هذا النبأ اليهود أهل الكتاب والكهان ، حتى لقد سارع من بلغه ذلك من العرب فسمى ولده محمداً طمعاً فى النبوة فهذا الجو الذى نشأ فيه الصبى محمد والاسم الذى حمله والإشاعات التى أحاطت به عن ذلك النبى الموعود ، كل هذا كان كافيا من غير شك فى أن يبعثه على التفكير فى هذا الأمر منذ الصغر ، ولعله طمع هو أيضاً فى أن يكون هو النبى الجديد . ولعل هذه الفكرة تملكت كيانه وطغت على كل شبابه فلم تتسع حياته فى ذلك الوقت لشىء آخر .

لقد كان هذا غالباً شأن أغلب أولئك الذين انتظرتهم أقدار عظام وتملكتهم منذ شبابهم مثل عليا وأحلام ، عمرت كل أعوام شبابهم وحلت فيها محل اللهو والمرح . إن كل شاب يعيش مع شبح امرأة جميلة إلا الشاب الموعود برسالة عظمى فهو يعيش دائماً مع شبح المجد المنتظر . لعل هذا يفسر لنا بعض الشىء حياة الفتى محمد حتى الوقت الذى لقى فيه أول امرأة أحبها : « خديجة » . وإنا لو تأملنا الأمر ملياً لتبين لنا أنه لم يكن البادىء بالحب . كل شىء يدل على أن الزواج لم يخطر له على بال ، والزوجة والمرأة آخر ما كان يفكر فيه وقتئذ ، فلقد كان يسير فى طريق تأملاته الداخلية وأحلامه العليا وكأنه لا يمشى على هذه الأرض ، إلى أن لحظته خديجة ذات يوم ولمست كتفه فأفاق قليلا ورفع عينيه إليها . نعم . إنها هى التى كانت ترقبه منذ زمن . وإن لشعورها نحوه جذوراً

ممتدة فى أغوار قلبها امتداد عرق الذهب فى المنجم العميق . ما مبدأ هذا الشعور ؟ لعله ذلك اليوم الذى احتفلت فيه نساء قريش بعيد لهن ، وكانت خديجة بينهن عند وثن من الأوثان فبرز لهن أحد اليهود مناديا بأعلى صوته: « يانساء تيماء . إنه سيكون فى بلدكن نبى يقال له محمد، فأيما امرأة استطاعت أن تكون له زوجاً فلتفعل . » فقذفته النساء بالحجارة وقبحنه وأغلظن له ، إلا خديجة فإنها أطرقت وكأن شيئا وقع فى نفسها من كلامه . ثم حدث بعد ذلك أن خديجة ، وقد كانت ذات مال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام وتستأجر من أجلها الرجال ، أرسلت الشاب « محمدا » فى تجارتها وضاعفت له الأجر . فعاد رابحاً ضعف ما كانت تربح التجارة على يد غيره ، لأمانته واجتهاده . وقص عليها عندئذ غلامها « ميسرة » وقد رافق محمداً فى رحلته ما رآه من هذا الشاب المستقيم الأمين .

ولعله أخبرها فيما أخبر أن أحد الرهبان قابله ، وأنهما تذاكرا مليا فى أمر النبي الموعود المسمى « محمداً » . كل هذا مع ما تشبعت به الأذهان من أساطير النبوة المنتظرة قد ألقى فى روع خديجة أنها أمام شاب لا يبعد أن يكون هو النبى الموعود . فإذا أضفنا إلى كل هذا أن محمدا كان فتى فى الخامسة والعشرين كريم الخلق جميل المنظر ، وأن خديجة كانت امرأة فى الأربعين ، أدركنا أن مثلها كان لا بد له أن يحب مثله . وهل يمكن أن نسمى هذا الشعور باسم آخر غير « الحب » ؟ ذلك الذى يدفع امرأة ذات

شرف وثروة أن تبدأ هى الخطوة الأولى نحو فتى فقير يتيم ؟ هى التى قد تقدم إليها أكرم رجال قريش نسباً وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا، طلبوها وبذلوا الأموال فلم تلتفت إليهم ، وأرسلت تابعتها « نفيسة » دسيساً إلى الشاب « محمد » تعرض عليه يدها .

منبع الحب إذن كان قلب « خديجة » . ولقد كان هذا الحب ساميا قويا عظيما فاستطاع أن يفتح قلب «محمد» وأن يملأه كل تلك الاعوام التى عاشتها خديجة بل إن هذا الحب لم ينطفىء بموت خديجة ، ولقد ظل مكانها من قلبه قائما دائما لم تستطع قط امرأة أن تزاحمها فيه . هذا هو حب «محمد» الاول . وتلك ناحية من نواحى الفضل المجهولة لم يذكرها الناس كثيراً لخديجة بما هى أهله من التكريم والتمجيد : إنها أول امرأة علمت «محمداً» الحب .

جوهر الدين

كان عمر بن الخطاب شديدا فى مراعاة أحكام الله .. حريصا على إقرار الأمن والأمانة بين الناس . فبينما هو يسير يوما فى إحدى الأسواق ، إذا هو يرى رجلا يلتقط من الأرض لوزة ، ويرفعها فى يده ، ويجرى بها فى الطريق صائحا :

— من ضاعت له لوزة ؟ !.

فما كان من عمر إلا أن انتهره قائلا :

— كلها ياصاحب الورع الكاذب ! ..

* * *

فى الناس أيضا من يلتقط لفظة فى كلام كاتب .. فيرفعها منعزلة عن نواياه ، مستقلة عن مراميه . ليندب ويولول صائحا : « ضاع الدين .. ضاع الدين ! » .. مثل هذا المتظاهر بالورع لا يفهم من الدين إلا ألفاظا .. ولا يدرك بأفقه المحدود ان الدين لا يخشى عليه من لفظة . كما أن الأمانة لا يخشى عليها من لوزة ! .. وأن الكتاب والشعراء فى كل العصور ينتفعون بكل ما فى الكتب القديمة من صور دون أن يرتاب فى عقائدهم القارىء الحصيف ! ومن ذا الذى يستطيع أن يرمى بالوثنية شاعرا يناجى آلهة الشعر أو يرى فى هتافه باله الحرب أو اله البحر شركا بالله الواحد الاحد الذى لاشريك له ؟ .. وإنما هى صور من الآداب القديمة

يستعيرها الشعراء والكتاب فى أساليبهم ، دون أن يخطر فى بالهم أن من الناس من يضيق عقله فيخلط بين الصورة الشعرية والعقيدة الدينية ! . .

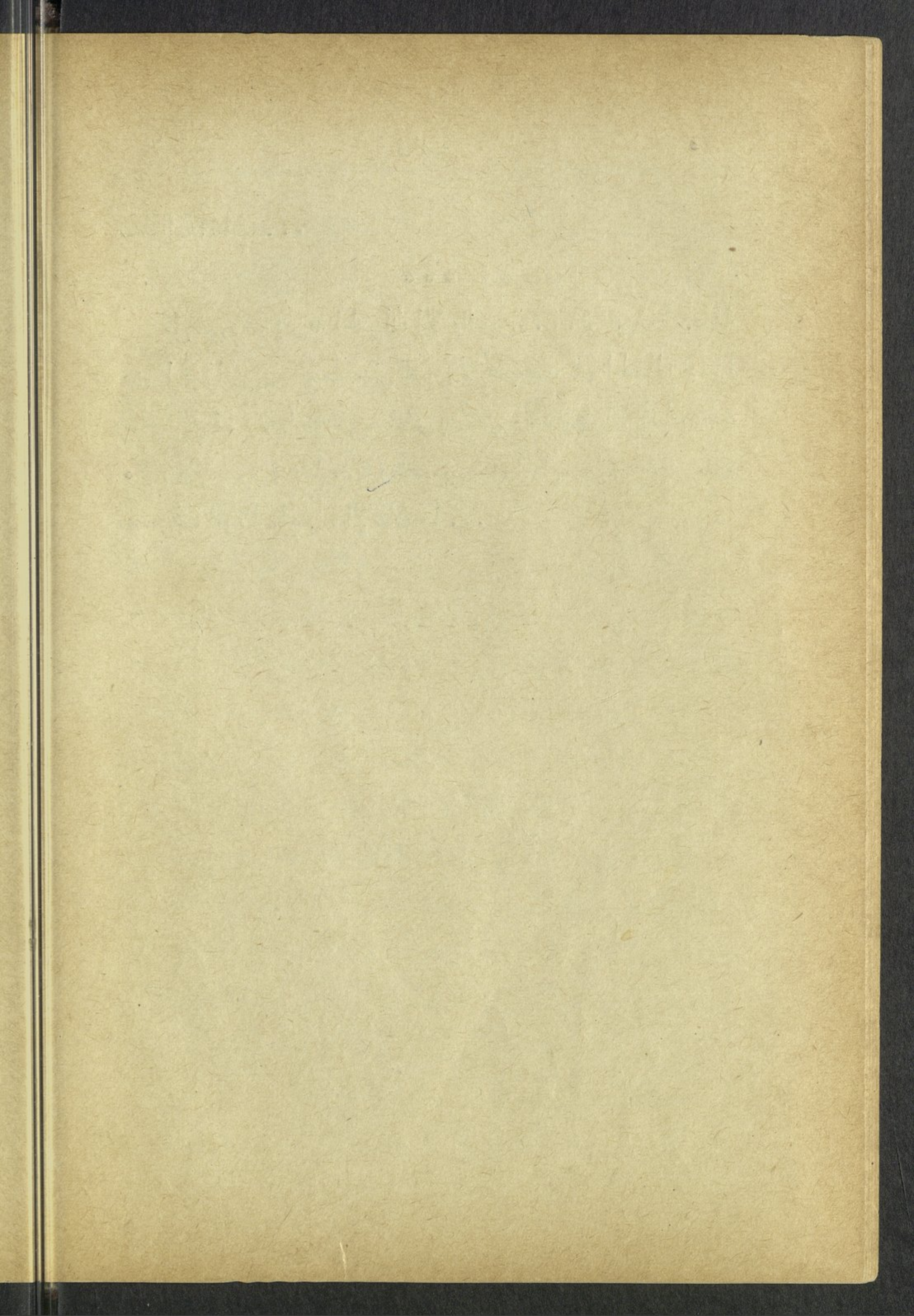
***

ولكنى مع ذلك أحيي كل من بينهم جوهر الدين . . واحث الناس على أن يفخروا بالدين . . فإنى دائما أومن أن الدين هو الذى رفع الإنسان فوق مرتبة الكائنات جميعا . . فالذكاء ليس بالمزية التى أختص بها الإنسان وحده . والنظام الإدارى المحكم أو الاقتصادى الكامل ليس وقفا على المجتمع البشرى . . فإن مجتمع النحل لأدق منا نظاما فى الإدارة . . وإن مجتمع النمل لأتم منا أحكاما فى الاقتصاد . . ولكن الذى يميزنا نحن الإنسان هو « الإيمان » ! . . ما من مجتمع غير مجتمعنا البشرى اهتدى إلى ذلك الإيمان الدينى . . لأن حياة الروح لم يلج بعد بابها غير الإنسان . . إذا أهدرت دينك أيها الإنسان فاعلم أنك قد أهدرت آدميتك . . وإذا خلعت رداءك الدينى ، فقد خلعت رداءك البشرى ، وانقلبت دابة تسعى إلى رزقها فى الأرض . . ولا تقوى على التطلع إلى السماء . . الدين هو الذى يرفع بصرك الى أعلى أيها الإنسان . . . الى أعلى من أقدامك وأرضك وطعامك وشرابك . . . وإذا استطعت أن ترفع بصرك إلى أعلى من فمك فأنت أرقى من الحيوان . . . وإذا أرتفعت إلى حيث تدرك وجود « الله » فأنت

سيد الكائنات . . .

* * *

كل شيء قد يعرفه الحيوان إلا «الدين» . . . لو عرفتْ جماعة من الحيوان يوما معنى الدين لأصبحت فى الحال بشرا ساجدين ! . . . ما من شيء نفخر به نحن الآدميين إلا أننا نسجد من أجل فكرة عليا . . . ونتحمس من أجل معنى مقدس . . . وتعرف قلوبنا ما هو «الإيمان» ! . . .



فى الأدب والفن والثقافة

الخلق

... لاريب أن العقلية المصرية قد تغيرت اليوم بعض التغيير كيف تغيرت ؟ هذا هو موضوع الكلام . إن شئون الفكر فى مصر حتى قبيل ظهور الجيل الموجود كانت مقصورة على المحاكاة والتقليد محاكاة التفكير العربى وتقليده. كنا فى شبه إغماء، لاشعور لنا بالذات . لانرى أنفسنا ولكن نرى العرب الغابرين . لانحس بوجودنا ، ولكن نحس بوجودهم . لم تكن كلمة « أنا » معروفة للعقل المصرى . لم تكن فكرة الشخصية المصرية قد ولدت بعد . حتى جاء الجيل الجديد فإذا هو أمام روح جديد ، وأمام عمل جديد. لم يعد الأدب مجرد تقليد أو مجرد استمرار للأدب العربى القديم فى روحه وشكله ، وإنما هو إيداع وخلق لم يعرفهما السلف ، وبدت الذاتية المصرية واضحة لا فى روح الكتابة وحدها بل فى الأسلوب واللغة أيضاً . لقد بدأنا نعى ونحس وجودنا ، وأول مظاهر الوعى شخصية الأسلوب واستقلال طريقة التعبير وما يتبعها من ألفاظ وأخيلة . كل هذا أصبح اليوم جلياً معروفا . ولم أكتب هذه الصفحات من أجله ، فحاجة مصر إلى الاستقلال الفكرى أمر لانزاع اليوم فيه ، ولقد مضى الكلام فى هذا ، إنما الأمر الذى يحتاج إلى كلام هو معرفة مميزات الفكر المصرى : معرفة أنفسنا حتى تتبين لجيلنا مهمته . لقد فهمنا مميزات الأسلوب والشكل ، وما

فهمنا بعد جيداً مميزات النفس والروح . ماهى مميزات العقلية المصرية فى الماضى والحاضر والمستقبل؟ ماروح مصر؟ مامصر؟ إن اختلاطنا بالروح العربية هذا الاختلاط كاد ينسينا أن لنا روحا خاصة تنبض نبضات ضعيفة تحت ثقل تلك الروح الأخرى الغالبة، وإن أول واجب علينا هو استخراج أحد العنصرين من الآخر ، حتى إذا ما تم تمييز الروحين احداهما من الأخرى كان لنا أن نأخذ أحسن ماعندهما، وكان لنا أن نقول للناس : « هانحن أولاء قد أنرنا لكم الطريق الى أنفسكم فسيروا » .

لابد لنا إذن أن نعرف ما المصرى وما العربى ؟ هذا السؤال ألقيته على نفسى منذ سنوات معدودة إذ كنت أطيل النظر فى الفنين المصرى والإغريقى ؟ . وأذكر أنى أثرت هذه المسألة أمام بعض الباحثين ، وأذكر أنى لخصت الفرق بين العقليتين بمثل واحد فى فن النحت سائلا : ما بال تماثيل الآدميين عند المصريين مستورة الأجساد وعند الإغريق عارية الأجساد ؟ هذه الملاحظة الصغيرة تطوى تحتها الفرق كله ، نعم كل شىء فى مصر مستتر خفى عند المصريين عار جلى عند الاغريق ، كل شىء فى مصر خفى كالروح وكل شىء عند الإغريق جلى كالمنطق ، فى مصر الروح والنفس، وفى اليونان المادة والعقل . نظرة أخرى فى أسلوب النحت تدعم هذا الكلام . إن المثّال المصرى لا يعنيه جمال الجسد ولا جمال الطبيعة من حيث هى شكل ظاهر ، انما تعنيه الفكرة ، إنه يستنطق الحجر

كلاما وأفكاراً وعقائد. على أنه يشعر مع ذلك بالتناسق الداخلى، يشعر بالقوانين المستترة التى تسيطر على الأشكال، يشعر بالهندسة غير المنظورة التى تربط كل شىء بكل شىء، يشعر بالكل فى الجزء وبالجزء فى الكل، وتلك أولى علامات الوعى فى الخلق والبناء. هذا كله يحسه الفنان المصرى لأن له بصيرة غريزية أو مدربة تنفذ إلى ماوراء الأشكال الظاهرة لتحيط بقوانينها المستترة. فنان عجيب لا يصرفه الجمال الظاهر للأشياء عن الجمال الباطن. إنه يريد أن يصور روح الاشكال لا أجسامها، وما روح الشكل إلا القانون العام الأعلى المستتر خلفه. إن ولع المصريين بالقوانين الخفية لشىء يبلغ حد المرض، مرض إلهى، لو أن الآلهة تمرض لكان هذا مرضها: فرط البحث عن القانون!

كل شىء فى مصر إلهى، لأن مصر التى منحتها الطبيعة الخير واليسر وسهولة العيش وكفتها مشقة الجهاد فى سبيل المادة استلقت منذ الأزل تتأمل ماوراء المادة ... حظها فى هذا حظ الهند: أمة كثير الخير كذلك دانية القطوف لا حاجة بها إلى الكفاح ولا عمل لها إلا استمراء ترف الحكمة العليا. انقطعت هى أيضا من قديم تحت أشجارها المقدسة تبحث عما وراء الحياة.

مصر والهند حضارتان قامتا على الروح لأنهما قد شبعتا من المادة، الإغريق على النقيض، أمة لم تشبع من المادة، أمة نشأت فى العسر والفاقة. أرضها لا تدر من الخير إلا قليلا. كان لزاما

عليها الكفاح فى سبيل العيش وكان حتما عليها الجرى وراء المادة ، حرب تلو حرب ، وفتح بعد فتح ، وضرب فى مشارق الأرض ومغاربها ، على هذا النحو لم يكن للاغريق ذلك الضمير المطمئن ولا ذلك الشعور بالاستقرار ، ولا ذلك الإيمان بالأرض الذى يوحى بالتفكير فيما وراء الأرض والحياة. إن عاطفة الاستقرار والايمان عند المصريين ممزوجة بالدم ، لأن المصريين نزلوا من بطن الأزل إلى أرض مصر ، لا يعرف لهم نسب آخر على وجه التحقيق واختلاف العلماء فى أمر أصلهم لم ينته بعد ، وفى كل يوم يبدو دليل على أن العمران والاستقرار وجد فى مصر قبل التاريخ المعروف ، ولقد ظهرت الحضارة المصرية فى التاريخ تامة كاملة دفعة واحدة ، كما يظهر قرص الشمس فى الأفق عند الشروق .
ولقد قال سولون : إن الكهنة المصريين يعنون العناية كلها بذكريات تلك القارة العظيمة ذات المدنية الزاهرة التى ابتلعها المحيط قبل مبدأ التاريخ : « قارة الأتلانتيد » أترى كانت الحضارة المصرية استمراراً لتلك المدنية المندثرة ؟... لم يقم دليل. على كل فرض مصر أمة مستقرة مؤمنة ، زهدها عمرها الطويل وخيرها الكثير فى مباذل الحياة ، وهذا الزهد والتفكير فيما وراء الحياة ظهر أثرهما على وجه الفن المصرى ، ولا شىء يدل على عواطف أمة وعلى عقليتها مثل فنها .
فلقد طالع العالم الحديث على وجه الفن المصرى الصرامة والجد والعمق ، ولا أكاد أفتح كتابا فى الفن المصرى حتى أجد كلمة

« الصرامة » نعتا من نعوت هذا الفن ، ولا أفتح كتابا فى الفن الاغريق إلا وجدت كلمة « الحياة » وكلمة « الانسانية » من نعوت هذا الفن . نعم ، الحياة هى كل شىء عند الاغريق ، قد يدفعهم حب البحث إلى لمس حدود الحياة الأخرى فيلمسونها بالعقل والمنطق لا بالقلب والروح . فلسفتهم فلسفة العقل والمنطق والحياة . فلسفة الحركة لا فلسفة السكون . عند مصر والهند السكون وعند الاغريق الحركة ، قرأت حديثا « المقبرة البحرية » لـ « پول فاليرى » وهو المتصل اتصالا مباشراً بالفلسفة اليونانية فاذا هو يشير فى قصيده إلى الحركة والسكون ، وإذا الحركة عنده من خصائص الكينونة الواعية الفانية والسكون من خصائص العدم الخالد غير الواعى ، وهو يعارض زينون الأليانى فى إنكاره للحركة ، ويتغنى فى آخر القصيدة بانتصار الحركة أى الحياة على قصرها وفنائها ، فهو فى ذلك لم يخرج عن يونانيته المكتسبة . ولم يفهم رأى روح مصر والهند ! ولم يشرف على ذلك العالم الخالد غير الواعى ، فإن دون هذا الاشراف والاتصال والتجرد التام من كل عقل آدمى أو منطق بشرى . هذه هى الصعوبة فى فهم مصر والهند ، وهذا ماجعل الفن المصرى سراً مغلقاً حتى أوائل هذا القرن ، وماصرف الناس إلى دراسة اليونان وحدها ؛ فهى واضحة لمعنى يسيرة المنال ، لأنها لزمت شاطىء الحياة .

حظ الإغريق فى كل هذا حظ العرب أيضا أمة نشأت فى

فقر لم تعرفه أمة غيرها ؛ صحراء قفراء ، قليل من الماء يثير الحرب والدماء . جهاد وكفاح لا ينقطعان فى سبيل العيش والحياة . أمة لاقت الحرمان وجها لوجه، وماعرفت طيب الثمار وجرى الأنهار ورغد العيش ومعنى اللذة إلا فى السير والأخبار . كان حتما عليها ألا تحس المثل الأعلى فى غير الحياة الهنيئة ، والجنات الخضراء ، والماء الجارى ، وألوان النعيم واللذائذ التى لا تنضب ولا تنتهى . أمة بأسرها حلمت بلذة الحياة ولذة الشبع ، فأعطاها ربها اللذة ومنحها الشبع . كل تفكير العرب وكل فن العرب فى لذة الحس والمادة ، لذة سريعة مهزومة مختطفة اختطافا ، لأن كل شىء عند العرب سرعة ونهب واختطاف. عند الإغريق الحركة، أى الحياة، وعند العرب السرعة ، أى اللذة. لم تفتح أمة العالم بأسرع مما فعلت العرب ، ومر العرب بحضارات مختلفة فاختطفوا من أطايبها اختطافاً ركضاً على ظهور الجياد ، كل شىء قد يحسونه إلا عاطفة الاستقرار . وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم أرض ولا ماض ولا عمران ! دولة أنشأتها الظروف ولم تنشئها الأرض ، وحيث لا أرض فلا استقرار ، وحيث لا استقرار فلا تأمل ، وحيث لا تأمل فلا ميتولوجيا ولا خيال واسع ولا تفكير عميق ولا إحساس بالبناء لهذا السبب لم تعرف العرب البناء ، سواء فى العمارة أو فى الأدب أو فى النقد ، الأسلوب العربى فى العمارة من أوهى أساليب العمارة التى عرفها تاريخ الفن وإذا عاش لليوم فإنما

يعيش بالزخرف ، فن الزخرف العربى هو الذى أنقـــذ العمارة العربية ، إن العمارة العربية — إلا فى مصر — ماهى فى رأيى سوى زخرف لا بناء ، فلا أعمدة هائلة ولا جبهة عريضة ولا وقفـــة ولا بساطة عظيمة ولا روعة عميقة ، إنما هى وشى كثير وجمال كجمال الحلى المرصع يبهر البصر ولا فكر خلفه . أما فن الزخرف العربى هو الذى أنقذ العمارة العربية ، إن العمارة العربية — إلا فى مصر — ما هى فى رأيى سوى زخرف لا بناء ، فلا أعمدة هائلة ولا جبهة عريضة ولا وقفة قويه ولا بساطة عظيمة ولا روعة عميقة ، إنما هى وشى كثير وجمال كجمال الحلى المرصع يبهر البصر ولا فكر خلفه . أما فن الزخرف العربى فهو فى الحق أجمل وأعجب فن للزخرف خلده التاريخ . والزخرف عند العرب وليد ذلك الحلم باللذة والترف ، كل شىء عند العرب زخرف . الأدب نثر وشعر لا يقوم على البناء ، فلا ملاحم ولا قصص ولا تمثيل ، إنما هو وشى مرصع جميل يلذ الحس ؛ «فسيفساء» اللفظ والمعنى ، و «آرابسك» العبارات والجمل . كل مقامة للحريرى كأنها باب لجامع المؤيد ، تقطيع هندسى بديع وتطعيم بالذهب والفضة لا يكاد الإنسان يقف عليه حتى يترنح مأخوذا بالبهرج الخلاب . كذلك الغناء العربى «أرابسك» صوتى ، فلا مجموعة أصوات متسقة البناء كما فى «الديتيرامب» أو «الأوركسترا» الإغريقية أو كما فى «الكورس» الجنائزى المصرى . ولا حتى مجرد صوت ينطلق حرًّا بسيطاً مستقيماً.

إنما هو صوت محمل بألوان المحسنات من تعاريج وانحناءات والتواءات وتقاسيم كأنها (ستالا كتيتات) غرناطية ، لا يكاد يسمعه (القاضي الفاضل) حتى يستخفه الطرب ويضع نعله فوق رأسه . كان هذا في العهد الأول للموسيقى إذ كانت عند جميع الشعوب بسيطة عارية تخرج من القلب تعبيراً عما في القلب ، أو رمزاً لفكرة من الأفكار . والموسيقى كالعمارة من الفنون الرمزية لا الفنون الشكلية ولكن العرب لا يحبون الرموز ، ولا طاقة لهم بالفن الرمزي ، ولا يريدون إلا التعبير المباشر بغير رموز ، إلا الصلة المباشرة بالحس ، فجعلوا من الموسيقى لذة للأذن لا أكثر ولا أقل ، كما جعلوا العمارة لذة للعين لا أكثر ولا أقل. ولقد حاول الفارابي فيما أذكر التقريب بين الموسيقى العربية والموسيقى الإغريقية ، وكان لا بد له من الاخفاق لأسباب قد أذكرها بعد . كذلك التصوير العربي على جماله ودقته ليس إلا مجرد تزيين وزخرف للكتب والمخطوطات ولم يؤد لغير تلك الغاية « المنياتور » الفارسي . قد يكون للدين دخل في تأخر النحت والتصوير عند العرب ، غير أني أعتقد في براءة الدين ، فان العرب كانوا دائماً ضد الدين كلما وقف الدين دون رغبات طبائعهم ، لقد حرم الدين الشراب ، فأحلوا هم الشراب في قصور الخلفاء ، وما وصفت الخمر ولا مجالس الخمر في أدب أمة بأحسن مما وصفت في الأدب العربي . لا شيء في الأرض ولا في السماء يستطيع أن يحول بينهم وبين اللذة . أما النحت أو التصوير

الكبير فليس فى طبيعتهم لأن تلك الفنون تتطلب فيمن يزاولها إحساساً عميقاً بالتناسق العام مبناه التأمل الطويل، والوعى الداخلى للكل فى الجزء وللجزء فى الكل، وليس هذا عند العرب. فهم لا يرون إلا الجزء المنفصل وهم يستمتعون بكل جزء على انفراد. لا حاجة لهم بالبناء الكامل المتسق فى الأدب، لأنهم لا يحتاجون إلا للذة الجزء واللحظة. قليل من الكتب العربية فى الأدب يقوم على موضوع واحد متصل، إنما أكثر الكتب كشاكيل فى شتى الموضوعات تأخذ من كل شىء بطرف سريع. من حكمة وأخلاق ودين ولهو وشعر ونثر ومأكل ومشرب وفوائد طبية ولذة جسدية، وحتى إذ يترجمون عن غيرهم يسقطون كل أدب قائم على البناء، فلم ينقلوا ملحمة واحدة ولا تراجيديا واحدة ولا قصة واحدة. العقلية العربية لا تشعر بالوحدة الفنية فى العمل الفنى الكبير، لأنها تتعجل اللذة، يكفيها بيت شعر واحد أو حكمة واحدة أو لفظ واحد أو نغم أو زخرف لتمتلىء طرباً وإعجاباً. لهذا كله قصر العرب وظيفة الفن على ما نرى من الطرف الدنيوى وإشباع لذات الحس حتى الحكمة، وشعراء الحكمة كانوا يؤدون عين الوظيفة: إشباع لذة المنطق، والمنطق جمال دنيوى. ولا أستغرب غضب نيتشه على إيرويبد لاسرافه فى هذا المنطق على حساب الموسيقى. من المستحيل إذن أن نرى فى الحضارة العربية كلها أى ميل لشؤون الروح والفكر بالمعنى الذى تفهمه مصر والهند من كلمتى الروح

والفكر ، إن العرب أمة عجيبة ، تحقق حلمها فى هذه الحياة، فتشبثت به تشبث المحروم ، وأبت إلا أن تروى ظمأها من الحياة ، وأن تعب من لذاتها عبا قبل أن يزول الحلم وتعود شقاء الصحراء ، وقد كان . إن موضع الحضارة العربية من « سانفونية » البشرية كموضع ال « سكيرتزو » من سانفونية بيتهوفن . نغم سريع مفرح لذيذ ! !

لا ريب عندى أن مصر والعرب طرفا نقيض : مصر هى الروح ، هى السكون ، هى الاستقرار ، هى البناء . والعرب هى المادة ، هى السرعة ، هى الظعن ، هى الزخرف !

مقابلة عجيبة : مصر والعرب وجها الدرهم ، وعنصر الوجود ! أى أدب عظيم يخرج من هذا التلقيح! إنى أومن بما أقول ، وأتمنى للأدب المصرى الحديث هذا المصير : زواج الروح بالمادة ، والسكون بالحركة، والاستقرار بالقلق ، والبناء بالزخرف! تلك ينابيع فكر كامل ومدنية متزنة لم تعرف البشرية لها من نظير . إن أكثر المدنيات يميل إما إلى ناحية الروح ، وإما إلى ناحية المادة .

حضارة واحدة قيل إنها استطاعت فى وقت ما هذا المزج بين الروح والمادة وهذا الإتزان بين عنصرى الوجود ، تلك حضارة الإغريق . نعم أعود فأرد إلى أمة الإغريق اعتبارها ، وأعترف أنى عندما وضعتها فى كفة المادة كنت متأثراً بعض الشىء بكلام « تين » و « تين » عقل خلاب لكنه عقل . والعقل وحده بعيد

عن فهم الجانب الروحى للمدنيات. ماهدانى إلى الحق إلا القلب..
إلا طول تأملى فى جبهة « البارتينون » . من دماغ ذلك الجواد
الذى خلقته يد « فيدياس » فوق هذا المعبد خرجت أفكار توحى
إلى بأن أولئك القوم كانوا أعمق مما نظن ، وكانوا يشعرون بشىء
آخر غير مجرد المادة الظاهرة ، وما لبثت « ميلبومين » أن جاءتنى
ببينة أخرى ، وتأملت قليلا فرأيت القناع قد كشف وذكرت
من فورى أن أصل الاغريق جنسان مختلفان : اليونيون القادمون
من آسيا المعروفون عند الهنود باسم « اليافاناس » أى عباد «يونا»
والدوريون الحربيـــون البرابرة الهابطون من الشمال ، وإله
اليونانيين هو (ديونيزوس) وإله الدوريين هو « أبولون » .
وهاهنا تفسير الأغريق : فى هذا الصراع بين ديونيزوس رمز
الروح والقوى الخفية الشائعة والنشوة ... وبين أبولون رمز
الفردية والشخصية المفروزة والوعى ، صراع بين الروح والمادة
وبين القلب والعقل ، وبين النشوة والوعى ، ديونيزوس إله أسيوى
فيما يخيل إلى ، جلب من الهند بلا مراء فغدا فى اليونان ينبوع
الموسيقى . لهذا السبب قدرت إخفاق الفارابى . فان الموسيقى
العربية وليدة عقل واع ، لأن العرب أمة الفردية والوعى والمنطق
العقلى والظاهر المحسوس ، إن العرب من عباد أبولون وهم لا يشعرون
إن العرب لا يمكن أن يفهموا ديونيزوس ، تلك النشوة الدينية
الجارفة التى تخرج صاحبها من سيطرة العقل والوعى كى تصله

مباشرة بالطبيعة . إن أغاني عباد « باكوس » الحماسية في الغابات ومزامير الـ « ساتير » لشيء بعيد إدراكه على العقلية الفردية ، شعور الانسان في لحظة أنه انقلب مخلوقاً له جسم جواد ورأس رجل أو رأس رجل وأرجل ماعز . هذا الاتحاد بين الحيوان والانسان إحساس ليس له مثيل إلا عند المصريين القدماء ، هذا التلاقي بين الأنواع وبين القوى في مخلوق واحد لهو عند الأولين بقية ذكرى تلك المخلوقات إلهية البائدة التي كانت تحكم الأرض قبل ظهور الانسان . . مخلوقات لاهي من الاناث، ولاهي من الذكور، لاهي من الحيوان ،ولاهي من الانسان. لأن الأجناس والفصائل لم تكن قد فرزت . كذلك « الساتير » في المتيولوجيا الاغريقية رمز للانسان الأول ذلك الانسان الداني من الحيوان القريب من الآلهة، يدنو من الحيوان بغريزته الجنسية المتيقظة ينبوع القوة الخالقة عن الاغريق والهنود كما هي عند المصريين ، ويقرب من الآلهة بغريزته الروحية المتصلة بقوى الطبيعة الالهية ، فهو ما زال يحتفظ بقبس من الحكمة العليا بدون أن يشعر ، وببريق من ذلك النور الروحي والالهام الذاتي يرى به كتلة الزمن من ماض وحاضر ومستقبل في شبه لمحة واحدة .

تلك القدرة الخفية هي حاسه بائدة كانت للانسان الأول ، وفقدناها اليوم ، نعم فقدنا كل القوى الروحية التي منحتنا إياها الطبيعة يوم كنا نحبها ونتصل بها ، ولم يبق لنا اليوم إلا العقل المحدود

والمنطق القاصر. وهانحن أولاء اليوم فى هذا الكون الهائل مخلوقات منفردة منبوذة! أين ذهب ديونيزوس؟ وهل يبعث من جديد؟ وإذا بعث فهل يجد من يعرفه فى هذا العصر ذى الحضارة المادية الفردية؟!

رجل واحد ما زال يذكر هذا الآله ويستطيع أن يعرفه إذا ظهر كما عرف غالياس(١) أصحاب الكهف!! وهو وحده كذلك يستطيع أن يستقبله باسم هذا العصر، هذا الغالياس العصرى هو: «تاجور»! إنه يتكلم كثيراً عن ذلك الاتحاد بين الإنسان والطبيعة وعن ذلك الفاصل المرفوع بين الحياة الخاصة وبين الحياة العظمى التى تخترق الكون. وعن ذلك الحب بين الإنسان والجماد. هذا كلام جميل لكن هل تراه يشعر بحقيقته؟ يخيل إلى أن تلك الحقائق قد انطوت بانقضاء دولة الاغريق. بل لقد انقضت قبل أن تنقضى دولة الاغريق. انقضت بطغيان منطق سقراط على روح هوميروس انقضت بطرد ديونيزوس من تراجيديات إيروبيد (غضبة نيتشه المعروفة)، انقضت بغلبة الإحساس الفعلى على الاحساس الروحى، انقضت بانتصار «أپولون» فى النهاية على «ديونيزوس». وهكذا اختل التوازن، ورجحت كفة المادة، وانطفأت الحضارة الإغريقية إلى الأبد. ولم ترث أوربا منها غير كنوز العقل والمنطق، وبقيت

(١) أحد أبطال قصتى أهل «الكهف»

فى الظلام كنوز ديونيزوس الخفية .

لم تنجح اليونان إذن النجاح المطلوب فى تطعيم الروح بالمادة فهل تأمل مصر بلوغ هذه الغاية يوماً ؟

دمنهور فى مايو عام ١٩٣٣ من رسالة إلى طه حسين .

النقـــد

... نحن متفقان، ولا خلاف بيننا فى الغاية. وهو مطلبنا.
هنالك تفاصيل أفترق فيها عنك ولن أعود إليها فأنا أفزع من النظر إلى الوراء، خشية أن أتحول إلى تمثال من الملح، أو حتى إلى تمثال من الذهب. نفسى تصدف أحياناً عن الفكرة الجامدة مهما تكن خالدة، ويحلو لى أحياناً أن أنثر الأفكار عابثاً من نافذة قطار. إن رسائلنا فى حقيقتها لا تعنى أكثر من إثارة الغبار فى أرض نائمة مفروشة بالحصى. لسنا نصدر أحكاماً بهذه الكتب السريعة. إنما نحن نطرح مسائل ونلقى بفروض سوف يلتقطها ويجمعها الباحثون المنقطعون يوم تستيقظ الأجيال. اتفقنا إذن.
أو ينبغى لنا أن نتفق على أى حال حتى ننصرف إلى شىء جديد.
إن البحث عن الجديد هو الخليق عندى بالمجهود. ولقد فتح لنا اليوم باب الجديد صديقنا «أحمد أمين». قال لى ذات مساء إنه يود لو يضع كتابا فى أصول النقد. النقد؟ لفظ رن فى أذنى.
وذكرت للفور أن رسالتى السابقة إليك كان موضوعها «الخلق».
وقلت فى نفسى ما يمنع من إتمام الكلام فى رسالة ثانية يكون موضوعها «النقد» وإذا الأمر ينكشف لى عن قضية كبيرة: أنعد النقد كالخلق خاضعاً لسلطان التيارات الفكرية الثلاثة التى ذكرتها فى ردك: التيار المصرى القديم، والتيار العربى، والتيار الأوربى؟

أم نعد النقد كالعلم لا يخضع لمثل هذه المؤثرات؟ أما أنا فلن أجيب من فوري عن هذا السؤال . فأنا أكتب ولا أدرى أين يحط بى القلم . دعنى أولا أنشىء على هذا النغم بعض « تقاسيم » دون أن أعنى الآن بالغاية . إن الغاية أحياناً رخيصة بجانب الوسيلة ، على الأقل فى نظر الفن . لأن الغاية فى الفن لا تبرر الوسيلة . الحياة كذلك تلك القطعة الفنية التى أبدعها الخالق ، أهى شىء غير وسيلة متينة التكوين ؟ ألها معنى غير ذلك الطريق المبين الذى أوله ضباب وآخره ضباب؟ خط هندسى رسم على لوح الوجود ، كيف ابتدأ ، كيف انتهى ؟ لا يعنى ذلك علم الهندسة . إنه خط بين نقطتين وكفى . ليس لنا أن نسأل عن غاية الحياة ، ولا عن غاية الفن ، ولا عن غاية العلم . إن الغاية لا تهم . إنما المعنى كله فى الوسيلة . الحياة هى الطريق ، العلم هو الطريقة ، الفن هو الأسلوب . أما الغاية فلا غاية . وهل يرتجى من العلم أو من الفن أو من الحياة غاية مطلقة يوماً من الأيام ؟ محال . ما نحن إلا أسلوب الخالق . ما الكون إلا أسلوب . الأسلوب كل شىء عند كل خالق وفى كل خلق . إن الخالق أعظم من أن يحبس إرادته الخالدة فى حدود «غاية»: لفظ يدل بذاته على معنى الانتهاء . فى اعتقادى أن كلمة « غاية » هى من صنع العقل البشرى الصغير . هذا العقل المحدود الذى يضع كل شىء دائماً داخل حدود ، ويأبى إلا أن يكون لكل شىء أول وآخر . إنما الخلود فى الأسلوب . لأن الأسلوب لا أول له ولا

آخر ، فهو شيء كائن دائماً لا علاقة له بالزمن . إن رجل الفن ، وهو المقلد الأصغر للمبدع الأكبر ؛ يدرك أن الفن لا يعيش بالغاية . لأن الغاية فانية كاسمها . وإنما يعيش الفن بالأسلوب . لقد انقضت الغاية من تشييد الأهرام ، وفنيت الغاية من بناء البارتينون . دفن الموتى أو عبادة الآلهة الغابرين غاية قد ماتت ، وبقى أسلوب الفن وحده خالداً فى الأهرام والبارتينون . خدمة الإنسانيه غاية العلم فى نظر البسطاء ، ولو سئل عالم فى ذلك لابتسم: « مالى وللإنسانية ! إنما أنا أبحث عن سر أسلوب الصانع الأعظم . إنما هى لذة البحث فى ذاتها. إنما هى طريقة البحث وأسلوبه. ولولا ذلك السرور الذى يملأ نفسى إذ ينكشف لعينى الباحثة عن جمال أسلوب الله لما تجشمت جهداً فى سبيل العلم ، ولما كان للعلم هذا المعنى الرفيع » . المخترعات كذلك ليست غاية العلم . هى تطبيق للعلم إنما العلم هو البحث الخالص المجرد عن كل غاية وعن كل استغلال . لقد كان الإغريق يبحثون ولا يطبقون . فيثاغورس مثل من أمثلة الاسلوب الخالد للعلم الخالص . الأسلوب إذن هو محور النقد كما هو عماد الخلق، وكلمة الأسلوب رحبة عميقة كالبحر ، فى جوفها كل كنوز المعرفة التى يصبو إليها البشر ، ولعل كل ما أوتيه الإنسان من سليقه سامية منذ أول الأزمان ليس إلا انعكاس أسلوب الخالق فى نفس الإنسان . هذا المنطق الذى نشأنا عليه ، ونرجع إليه فى كل حياتنا ، هذا الإحساس بالنتيجة والسبب ، هذا الشعور بالتناسق

والتناسب ، هذا الإدراك للصلة التى تربط الشىء بالشىء ، من أين جاءنا هذا نحن البشر ؟ أهناك مصدر آخر غير أسلوب الخالق فتحت البشرية عينيها فألفته حولها ، فهو موجود قبلها وقبل الخليقة كما يوجد الرسم والتصميم قبل البناء إن أسلوب المبدع فى صنع الخليقة هو وحده المنبع الأزلى لهذه الصفات كلها : المنطق ، ارتباط السبب بالنتيجة، والشىء بالشىء ، والجزء بالكل، والتناسق والتناسب. صفات هى بعينها صفات الأسلوب السليم لكل عمل فنى عظيم أسلوب الله هو المعلم الأول والأخير. وما أول صورة رسمها الإنسان على الأحجار وعظام الحيوان سوى إعلان شعوره الخفى بتلك الصفات . إن رجل الفن الأول هو أول إنسان عرف « المنطق » صفة فنية بعد أن كان المنطق سليقة سامية تسبح فى أنحاء نفسه ولا يعرف ماهى . إن المنطق الذى شيد الأهرام لهو صورة محكمة للمنطق ألذى شيد الكون . ما المنطق ؟ ما معنى المنطق؟ سره فى تلك المرآة العظيمة الصافية التى تحيط بنا كالجدران: الوجود، أجمل مثال للمنطق فى الأسلوب ينبغى لرجل الفن والأدب والعلم أن يطيل فيه النظر . كل شىء فى هذا الوجود مصنوع على طريقة واحدة وعلى قاعدة واحدة . ما القاعدة التى بنى عليها الوجود ؟ هى القاعدة التى بنيت عليها الأهرام . هى قاعدة كل بناء : التماسك بين الأجزاء فى كل واحد منسق . هذا التماسك ما علته وكيف يكون ؟ قانون أستطيع أن أفرغه كما يفعل الرياضيون فى صيغة بسيطة من لفظين :

« الأخذ والعطاء » . كل شيء فى هذا الوجود يحيا على نمط واحد!. وكل حياة فى هذا الوجود لها مظهر واحد. أخذ وعطاء فى حركات متصلة متشابهة [١] : زفير وشهيق عند الإنسان والأحياء ، اكتساب واشعاع عند النجوم والأشياء، الأخذ والعطاء قانون التماسك والاتصال فى حياة الفرد والمجتمع والأمة والأمم . وفى حياة الأخلاق والسياسة والاقتصاد، فى حياة المادة والروح، وفى حياة الأرض والأجرام والسدم ليس فى الوجود شيء لا يأخذ ولا يعطى. ليس فى الوجود شيء يعطى ولا يأخذ كل شيء يعتمد على كل شيء فى هذا الكون . بنيان مرصوص يشد بعضه بعضا ، وكل خلق بنيان ، ولا بنيان بغير وحدة شاملة ، ولا وحدة شاملة بغير تضامن بين الحجر والحجر ، وبين الجزء والجزء . يتساءل هنرى بونكاريه فى كتابه «قيمة العلم» : « أيحق لنا أن نتكلم فى سبب ظاهرة من ظواهر الكون مادام كل جزء من أجزائه متصلا بكل جزء برباط التضامن ؟ إن أية ظاهرة من الظواهر لن تكون نتيجة سبب واحد ، بل نتيجة أسباب غير متناهية فى العدد . إن أية ظاهرة مهما يكن شأنها ليست فى الغالب إلا نتيجة لحالة الكون كله فى لحظة سلفت » فالكون كله إذن إن هو إلا إناء واحد صنعته يد واحدة من عناصر متآلفة ، وهذا التآلف أو التضامن إنما هو وليد ذلك

(١) تعريف شخصى للحياة ، أدبي الصيغة بالقياس إلى تعريف « كلود برنارد » العلمى الصيغة .

القانون : « الأخذ والعطاء » : ليس هذا كل المنطق فى صنع الوجود إنما المنطق تركيب ذلك القانون . ماقوام الأخذ والعطاء ؟ هل يكون أخذ وعطاء إلا بين كائنات متشابهات ؟ ما الحال لو أن الخالق أبدع وجوداً آخر على أسلوب آخر ، فصنع أناساً يعيشون بالزفير ولا يعرفون الشهيق ، ومخلوقات تأكل ولا تصرف ، وأجراماً تكتسب الحرارة والضوء ولا تشع ؟ أى اتصال يمكن أن يقوم بين كائنات خلقت على غير أسلوب واحد ؟ لا اتصال ، وحيث لا اتصال لا بناء . لا خلق ولا بناء إذن فى الكون أو فى الفن بغير وحدة الأسلوب .
كذلك فى مادة الأجزاء ، هل يقوم أخذ وعطاء بين أجسام لا تتحد فى مواد البناء ؟ أى اتصال بينى وبين أخى وابنى لو أن الخالق صنعنى من عناصر غير عناصرهما فجعلنى من يابس ورطب وجعلهما من نور ونار وغاز وبخار ؟ أى ارتباط لو أنه جعل كل مخلوق منفرداً بمادته وهيئته وعناصره عن كل مخلوق ؟ أى هرم يمكن أن يشيد بأحجار ، أحدها من صخر ، وآخر من عجين ، والثالث من ورق ، والرابع من طين ؟ لا ارتباط بغير تشابه وتماثل . ولا تضامن بين أجزاء غير متجانسة فى التركيب . إن كل ما نحس وجوده يتحد معنا فى بعض العناصر . بغير هذا ما كنا نعترف له بوجود . إنما نعرف الأجرام لأن أجسامنا تعرف الحرارة والضوء والحديد . التشابه إذن هو شرط الأخذ والعطاء . الاختلاف كذلك شرط آخر . وهل يقوم أخذ

وعطاء إلا بين كائنات مختلفة؟ ما الحال لو أن الخالق صنع كل شىء كل شىء، فجعل كل رجل ككل رجل وكل جرم ككل جرم؟ طبع واحد، ومنظر واحد، وحجم واحد .. أليس هذا التشابه المطلق ينفى الشخصية؟ وحيث لا شخصية فلا أخذ ولا عطاء، ولا تماسك ولا اتصال، وهل من صلة بينى وبين غيرى إلا لاختلاف شخصه عن شخصى وما عنده عما عندى؟ وهل رابطة الأجرام إلا اختلافها فى الأحجام؟ الجاذبية الحب، هل علتها إلا اختلاف النسب فى القوى والأشكال؟ إن مثل هذا الكون المتماثل لا يمكن كذلك أن يشيد أو يوجد. مثله مثل قصة تمثيلية أشخاصها لهم عين الاسم والجسم والطبع والحظ يتكلمون عين الكلام، ويتحركون عين الحركات ويتصرفون عين التصرفات! أى علاقة يمكن أن تنشأ بين هذه المخلوقات؟ وهل يشعر أحدهم بوجود الآخر؟ وهل يدرك أحد منهم معنى كلمة «أنا»؟ لا بد من بعض الاختلاف بين الكائنات حتى يتميز كل كائن من الآخر ومتى تميزت الأشخاص والأشياء والأجزاء نشأ بينها الأخذ والعطاء، سر التماسك فى كل بناء.. ها هنا إذن قوام التناسق: «التشابه لا كل التشابه، والاختلاف لا كل الاختلاف!»

(بيتهوفن هو الذى كشف لى منذ سنوات عن سر التأليف بين صوتين فى عين الوقت. فقد لحظت أنه يجمع بين صوتين متشابهين لا كل التشابه مختلفين لا كل الاختلاف. وأدركت ألا تناسق بغير

هذا . فلو أنه جعل الصوتين متشابهين كل التشابه لفنى أحدهما فى الآخر ، وما ميزنا شيئاً غير صوت واحد . ولو أنه جعلهما مختلفين كل الاختلاف لاستحال على الأذن أن تصل بينهما وهما متباعدان متنافران . فأساس « التناسق » فى الموسيقى والفن كأساس التناسق فى الحياة والكون : ائتلاف بين الأجزاء لا كل الائتلاف ، واختلاف بينها لا كل الاختلاف

جملة القول عندى أن أسلوب الله فى صنع الكون هو وحده منبع الفن ، هو وحده مصدر ذلك الادراك الانسانى للجمال منذ مبدأ الأجيال . أما نقاد القرن التاسع عشر فلا أحسبهم رفعوا أبصارهم إلى هذا الأسلوب مستلهمين . إنما هم قد خروا أمام تمثال العلم ساجدين ، أنظارهم خاشعة ترنو فى رجاء إلى شعاعين من الكهرباء صادرين من عدسات عينية الجامدتين . القرن التاسع عشر قرن تأليه العلم . فلقد بهر العلم العالم بانتصارات حاسمات متواليات . فاذا الأدب والفن والفلسفة كلها تهرع إليه تقر له بالغلبة والسلطان . وإذا كل شىء يطلب إلى العلم تفسيراً . وإذا العلم فى نشوة الظافر وبسمة الواثق لا يأبى أن يقضى فيما يعنيه وفيما لا يعنيه . وإذا العلم وهو علم المادة يريد أن يتحدث فى شئون الروح . وإذا سئل عن الروح قال دونكم هذا الطريق وأشار إلى عين الطرائق التى أدت إلى الفوز فى شئون المادة : التحليل والتركيب والتجربة والقياس والاستنتاج

والاستقراء الخ ، بهت العالم لنظرية النشوء والارتقاء ، وآمن الناس أن أصلنا من ماء وخلايا حية وحيوان ظل يسمو فى المرتبة على مدى الأزمان حتى بلغ القرد جد الانسان ! نظرية جميلة ، خلب جمالها اللب على الرغم من بشاعة ذلك الجد الغول . أما صدقها فجائز من حيث المادة والأجسام . ولكن . . وهنا القضية : أتصدق هذه على الروح أيضا وشئون الروح ؟ الاحساس بالجمال : أيخضع أيضا للنشوء والارتقاء نعم ، نعم ، نعم . هكذا قالت المدرسة الانجليزية (سبنسر ، جرانت ألن رسكن) وكان لابد لهذه العقول التى فتنتها نظرية التطور فى المادة أن تبرر للناس نظرية التطور فى الجمال .

وعجب الناس لنظريات علم طبقات الأرض وعلم الحيوان وعلم الحياة وأبحاث (لامارك) فى تأثير البيئة والمناخ وظروف الحياة على طبيعة الأجسام ، فقامت المدرسة الفرنسية (هبوليت تين) تخرج للفكر والأدب نظرية للجمال والفن : الوحى فيها والالهام : مقاييس الحرارة وموازين الأحجام !

بل إنى لأرى أصبع العلم قبل ذلك بقرن يقود المدرسة الألمانية إلى نظريتها فى الجمال عمانويل كانت) . . .

ولم يكف العلم هذا التوجيه والتأثير بل تناول بيديه فى هذا المهد الحديث جسم الجمال ، وأعمل فيه المشرط والمسبار (علم النفس الحديث) قضى الأمر ، وخرج الجمال من حدائق الفلسفة إلى معامل العلم . . .

لست أزرى على طرائق العلم . فهى وسائل البشرية التى لا تملك غيرها . وأذكر يوم كنت أرصد وقتا للتفكير فى هذه المسائل أنى بسطت أمام نفسى هذا السؤال الساذج . الحيوان ماعلمه بالجمال ؟ حصان بين مهرتين إحداهما جميلة مليئة شهباء والأخرى قبيحة هزيلة عرجاء ، إلى أيتهما يميل ؟ ماترددت يومئذ أن أقول فى ثقة واقتناع « إلى الجميلة يميل ، ماوجه الترجيح ؟ لست أدرى ، وحبذا التجربة فهى الحكم الفصل ! » . لكنى يومئذ كنت أفكر تفكيراً صرفا فى أبراج عاجية اعتدت أن آوى إليها للتفكير الهادىء ، فأين لى بالخيول والأفراس أجرى عليها التجاريب ؟ فهأنذا أقر بأن التجربة وسيلة بشرية طبيعية للوصول إلى المعرفة . وأقر بأنى شعرت يوما بالحاجة إلى ممارستها فى شئون الجمال . غير أنى على الرغم من هذا لا أحب أن أعتقد ببساطة أن نظريات العلم فى شئون المادة تصدق دائماً فى شئون الروح . لاشىء يستطيع أن يقنعنى بأن إحساس الجمال . وليد تطور ونشوء . بى رغبة أن أصيح بغير دليل فى يدى أن إدراك الجمال ولد كاملا فى قلب الانسان منذ رفع بصره و بصيرته إلى أسلوب الله فوعاه . إنى أخشى أن نقع فى الغلط إذ نطبق نظريات المادة فى مسائل الروح ، وهل تستطيع أن تجيز قول رسكن وجرانت ألن فى الالياذة :

« ... ماكان يعنى الأقدمون بالطبيعة ولا بجمالها إلا حين يتصلان بعيش الإنسان - ففى الإلياذة ما كان يوصف منظر طبيعى لذاته ، بل لمنفعته

للانسان ، كأن يكون مكانا خصيبا يفيض بالحنطة أو تكثر فيه الجياد . ما كانت الطبيعة سوى إطار للحوادث والأشخاص ، لا إنها لذاتها محل للوصف . إن الطبيعة لم تحب لذاتها إلا فى العصر الحديث ، حيث استيقظ الإحساس بها . إحساس صاف خالص لا تشوبه شائبة النفع أو المصلحة . . » ماذا أقول فى هذا الكلام ؟ أهو جهل بمشاعر الأقدمين ؟ أم تورط فى تطبيق نظرية التطور والنشوء ؟ أنصدق حقا أن الشعور الرفيع بجمال الطبيعة لم يعرفه القدماء خالصا لدنوهم من الحيوانية ؟ أنصدق أن « هومير » لم يحس جمال الطبيعة لذاتها ؟ أهذا رسكن يقول هذا الكلام ؟ أما أنا فقد مضى كلامى فى الطبيعة والقدماء ، ورأيى الذى أبديته فى رسالتى الأولى أن الأقدمين كانوا أقرب منا إلى الطبيعة وإلى فهمها . لقد كان الأقدمون يحسون أنهم جزء من الطبيعة ونغم من أنغامها . أما رسكن وأنا أو الانسان الحديث فلا يحس إلا ذاته الآدمية منفصلة عن الطبيعة وعن كل شىء دليلى فى القدماء من مصريين وإغريق . أهذا فن قوم لا يحسون الطبيعة لذاتها ولا يدركون قوانينها وأساليبها ؟ إلى هذا الحد يصل الانقياد إلى النظريات ؟ من أجل هذا لا أريد التمكين للعلم حتى يجلس على عرش النقد دون شريك . أحب طرائق العلم . لكنى أخشى نتائج العلم . فلترفع بالروح قليلا . لست أريد أن أضع الروح تحت مبضع العلم ، رهبة منى أن يشقها فيجدها غلافا أجوف . وإنى

لا أنسى يوم شاهدت تشريح جثة آدمى للمرة الأولى . أى قلق يومئذ مزق إيمانى بقيمة الانسان ! كلا . إنى كرجل من رجال الروح لا أريد أن أفجع فى خير ما أعيش به وله . يريح نفسى دائما أن أقول إن عقل العلم لا يكفى ولا بد دون إدراك الجمال والروح من العودة إلى القلب . أريد ألا يخرجنى العلم من ذلك الايمان الذى كان يضىء فى قلوب المصريين القدماء إيمان قربهم من الخالق ، فاذا هم ببصائرهم العميقة العجيبة أول آدميين استطاعوا فهم أسلوب الله والنفوذ إلى قوانين إبداعه . إن أقصى العلم الايمان . أحب ذلك العلم المؤمن الشاعر الذى عرفه أيضا الفلكيون العظام فى القرنين السادس عشر والسابع عشر : كوبرنيك ، وجاليليه ، وكبلر ، آخر قطرة من ذلك العلم الممزوج بالايمان ، كانوا ينظرو إلى الكواكب كما نظر إليها من قبل المصريون الأقدمون لا بعين العقل وحده ، بل بعين القلب أيضا . كانت السماء والنجوم فى نظرهم مخلوقات حية . كانوا أيضا يحسون فى كتلة النجوم وفى هذا الكون بأكمله الروح الخالقة ويد المبدع الأعظم . ما أروع هذه العبارة من كبلر ، فيها تلخيص جميل لكل ما يملأ نفسى : « . . كل الخليقة ليست إلا سمفونية عجيبة فى مجال الروح والأفكار كما هى فى مجال الأجسام والأحياء . كل شىء متماسك مرتبط بعرى متبادلة لا تنفصم . كل شىء يكون كلا متناسقاً . إن الله قد خلقنا على صورته ، وأعطانا الاحساس بالتناسق . كل ما يوجد

حى متحرك ، لأن كل شىء متتابع متصل ، كل كوكب وكل نجم إن هو إلا حيوان ذو نفس . إن روح النجوم هى سر حركتها وسبب ذلك الحب الذى يربط بعضها إلى بعض ، وتعليل ذلك النظام الذى تسير عليه الظواهر الطبيعية . . » أولئك رجال ساروا فى بيداء العقل دون أن ينسوا دليل القلب ، أولئك هم العلماء العظام ! أرى أنك قد استشففت رأيى بعد هذا التمهيد . نعم ولا أخشى أن أجيب الآن عن السؤال فأقول إن التيارات الثلاثة التى ذكرتها تصدق أيضاً فى النقد كما تصدق فى الخلق . أما التيار الأوربى فى النقد فهو المرتكز على العلم. ولقد وصل إلينا هذا التيار بالفعل وتأثرنا به . وإن بعض كتب النقد التى ظهرت أخيراً فى مصر الحديثة تنم عن هذا الاتجاه العلمى . وهو أمر لا بأس به ، بل هو واجب محتوم ، على شريطة أن نقرن به ونضيف إليه عناصر جديدة ووسائل أخرى مستخرجة من أرضنا وتراثنا إذا أردنا أن ننشىء لآدابنا طريقة شخصية كاملة فى النقد . فأما التيار المصرى القديم فهو النقد المعتمد على الذوق أى سليقة المنطق والتناسق ، وهو عند المصريين القدماء سليقة المنطق الداخل للأشياء والتناسق الباطن أى القانون الذى يربط الشىء بالشىء ؛ أى جمال للأهرام غير ذلك التناسق الهندسى الخفى وتلك القوانين المستترة التى قامت عليها تلك الكتلة من الأحجار ، جمال عقلى داخلى ، كذلك أسلوب الخالق لا يعنى دائماً بالجمال الظاهر وحده فى خلق الطبيعة . فأى

جمال لجبل المقطم ؟ إن الجمال الظاهر نسبى لا يقدره غير الإنسان ، إنما المنطق الداخلى للأشياء هو كل جمالها الحقيقى ، هذا الادراك للجمال الخفى فطن إليه المصريون القدماء يوم صنعوا « الأهرام »، فهم لم يرموا إلى الجمال الظاهر الذى يسر العين ، إنما أرادوا أن يصنعوا بأيديهم البشرية ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، فى روعتها وضخامتها وقوة تأثيرها . وقد تمت المعجزة . وإذا الأجيال على مدى آلاف السنين تعبر ا هرام عبورها جبل المقطم سواء بسواء وكأنما اختلط ا مر فى ضمير الزمن وضمير البشرية فارتفع هذا « الخلق الآدمى إلى مقام الظواهر الطبيعية ! أولئك قوم أرادوا أن يقلدوا أسلوب الله فى عظمته ودقة قوانينه ، فأعانهم الله على ما التمسوا، وكشف لهم عن بعض أسراره وطرائقه ! هذا المقياس المصرى القديم للجمال ما أحسبه قد أثر بعد فى حياتنا الفكرية أو فى أحكامنا الفنية . أما التيار العربى القديم فهو النقد الذى قوامه ذوق الحس ، أى سليقة المنطق الظاهر والتناسق الخارجى . الجمال عند العرب هو الجمال الظاهر الذى يسر العين و يلذ الأذن . أنستطيع أن نتخيل العرب تبنى الأهرام أو تقدر فيها جمالا؟ لقد جاء العرب مصر وتحدثوا بجمال نيلها وأرضها وسمائها ولم يروا فى الأهرام إلا شيئاً قد يحوى نقوداً مخبوءة ، أما بناؤه فشىء لا يحسب فى الفن . إنما الحسن عند العرب حسن الهيئة قبل كل شىء . المساجد كالعرائس تكاد تخطر حسناً بزخارفها ، زينة للناظرين . بغير هذا فلا

عمارة ولا فن. الشعر رنين لذيذ ، وخيال جميل ، ومعان لطيفة وألفاظ مختارة ظريفة ، بغير هذا فلا شعر ولا فن . الجمال عند العرب جمال إنسانى والفن عندهم شيء صنعه الانسان لنفسه وللذته . الفن العربى القديم فن إنسانى دنيوى ، والفن المصرى القديم فن إلهى دينى : لهذا اختلفت المقاييس فى الجمال بين الفنيين ، أحدهما يعنى بالتناسق الشكلى الذى يروق الانسان ، والثانى يعنى بالتناسق الخفى بغير التفات إلى الانسان. ولعل المقياس العربى القديم هو فى مصر المنفرد حتى اليوم بالحكم فى قضايا الشعر والأدب .

هذا المقيـاس العربى ذو الابرة الدقيقة عجيب فى تسجيل كل انحراف عن منطق الألفاظ . إنما هنالك فى اعتقادى منطق آخر مستتر، أمره يعنى المقياس المصرى .

إنى يوم قلت بمزج الروح بالمادة فى آدابنا كان يجب على أيضاً أن أقول بوضع المقياس المصرى فى النقد بجانب المقياس العربى . . .

كوم حماده فى سبتمبر عام ١٩٣٣ من رسالة إلى طه حسين

بين الخالق والناقد

. . . حقيقة أذكر أنك كنت عازماً على نقد كتابى « محمد » فما الذى منعك ، وأذكر أيضاً أنك أفضيت إلى بخوفك أن يسىء بعض رجال الدين فهم مرادك فأضار أنا بذلك ، وهى عاطفة نبيلة حمدتها لك . على أنى فيما أذكر أيضاً قد شجعتك على المضى فى نقدك وهو فى جملته لا يؤيدنى . بل إنى قد وافقتك عليه معجباً بفراستك مقدراً لبراعتك فى الوقوع من فورك على المواطن التى يجوز فيها النقد والكلام . فأنت ترى أن المؤلف لم يغضب ، بل ابتسم واغتبط ليقظة الناقد . فى الواقع أنى لست أومن كثيراً بتلك الأسطورة التى تروى عن غضب المؤلفين . واسمح لى أن أتكلم بلسانهم فأقول إن هذا الغضب لا يجد سبيلا إلى نفس الكاتب إلا إذا شعر من ناقده بعزوف عن الحق والجد ، ونزوع إلى الحط من القدر مبطن بسوء القصد . فالناقد الذى يحترم شخصى ويهدم عملى لا يغضبنى لأنى أعلم أن الأديب لا يهدمه النقد ، فهو كائن ممتاز لا يهدم ، ولا يقبض إلا باذنه ولا يقضى عليه إلا بارادته . إن الأديب لا يموت مقتولا ، بل يموت منتحراً . ومع ذلك فانى لا أحب للمؤلفين أن يغضبوا على أى حال ، فان الغضب علامة الضعف الآدمى . ولا شىء فى الوجود أقوى من الابتسامة ، ولكن من ذا الذى أعطى القدرة على الابتسام الصافى

الجميل فى كل موقف وفى كل حين ؟ أهو الجبار وحده ؟ ألا ترى معى أن الجبروت إنما هو الصفاء ؟ . (إذا أردت أن تسلك طريق السلام الدائم، فابسم للقدر إذا بطش بك . ولا تبطش بأحد) . . تلك كلمة لعمر الخيام ، وضعتها فى صدر كتابى (عصفور من الشرق) الذى لم أكتب منه فى سنوات ثلاث أكثر من ثلاثة فصول . وإنك لتعجب إذا قلت لك إن هذا البطء أو هذا العجز مرجعه علة واحدة قد انكشفت لبصيرتى آخر الأمر : عدم استكمال الصفة العليا التى يرتديها بعض رهبان الفكر كما ترتدى المسوح : الصفاء .

إن كنت من رأيى فى كل هذا فان لى عندك حاجة : أن تنشر معى تلك الابتسامة بين الأدباء ، فان الأدب شىء جميل ، هو جنة لا صخب فيها ، وهو معبد لا تدخله الأحقاد . إن أعجب ظاهرة فى أدبنا أنه لا توجد فيه صداقات عظيمة جديرة أن يتحدث عنها تاريخ الأدب ، تلك الصداقات التى نراها فى آداب الحضارات الكبرى قد أنتجت من الرسائل والأخبار والآثار ما لا يقوم بمال . ما الذى يعوزنا نحن ؟ أهو شىء فى الخلق ؟ أم هو ضعف فى النفس ؟ أم هو نقص فى الثقافة ؟ لست أعلم . إنما الذى أعلمه : أن الصداقة الخالصة بين رجال الأدب والفكر ، هى أظهر دليل على نضوج هذا الأدب ، وهذا الفكر .

القاهرة فى يونيو عام ١٩٣٦ من رسالة إلى أحمد أمين .

فى الأدب والفن والثقافة

غاية الأدب والفن

. . . « هذا هو الأدب الأمريكى يحمل لواءه اليوم رجال مارسوا الحياة العملية فى شتى شئونها . ثم لم يكتبوا فى خيال وأوهام وأحلام ، إنما يكتبون فى أكثر ما يكتبون فى مشكلاتهم الحالية ومسائلهم اليومية وحياتهم الاجتماعية ، وأكثر هؤلاء لا يستوحون أساطير اليونان والرومان ، وإنما يستوحون مجتمعهم وما فيه وما يصبوا إليه . فللأديب العربى أن يستوحى امرأ القيس أو « شهر زاد » ! ولكن يجب أن يكون ذلك نوعاً من الأدب لا كل نوع ، ولا هو النوع الغالب ولا هو الأرقى . . »[1]

مع الأسف أرانى مضطراً أن أقول للصديق المبجل إن استيحاء أساطير اليونان والرومان وامرىء القيس و« شهر زاد » هو النوع الأرقى فى الأدب . فى كل أدب . . لا فى الماضى وحده ولا فى الحاضر . . بل فى الغد أيضاً وبعد آلاف السنين ، ما دام الانسان إنساناً ، وما دام رقيه الذهنى بخير لم يصبه نكاس . فالانسان الأعلى هو الذى يصون « الجمال الفنى » عن الاستغلال الأرضى فى أى صورة ويحتفظ فيه لمتعته الذهنية وثقافته الروحية . وإن اليوم الذى نرى فيه « الأدب » قد استخدم للدعايات الاجتماعية ، و« التصوير »

---

(١) من مقال لأحمد أمين نشره فى مجلة « الثقافة » عام ١٩٤٤

استغل فى معارض الاعلان عن السلع التجارية ، و « الشعر » جعل أداة لإثارة الجماهير فى الانتخابات السياسيه ، لهو اليوم الذى نوقن فيه بأن الإنسان قد كبر فانقلب طفلا يضع فى فمه تحف الذهن وطرف الفكر ، لأنه لا يدرك لها نفعاً غير ذلك النفع المادى المباشر . والأدب الأمريكى الذى يعجب به أحمد أمين بك هو فى أغلبه صحافة راقية أكثر مما هو أدب حقيقى . والأدب الحقيقى فيه هو ما استند إلى أساطير اليونان والرومان ، أى مخلوقات الانسانية التى أبدعتها أحلامها الجميلة وخيالها الرائع . فالخلاف بينى وبين صديقى أحمد أمين هو على معنى « الرقى » ، فأنا لا أسلم أبداً بأن رقى الانسان هو فى تقدم أسباب معاشه المادية . هذا حقاً هو الرقى بالمعنى الأمريكى ، ولكن الرقى بالمعنى الانسانى المثالى شىء غير ذلك . إن الانسان الأعلى ليس ذلك الذى يضع كل شىء فى فمه ولكنه ذلك الذى يشعر بحاجته إلى متع معنوية وأغذية روحية وأطعمة ذهنية لا علاقة لها من قرب أو بعد بضرورات حياته المادية أو الجثمانية هذا هو الفرق الوحيد بين الانسان والحيوان . فالحيوان لا يحتاج إلى أن يطرب لبيت من الشعر أو لصوت من الغناء أو التمثال من الرخام ، ولا يمكن أن يخطر له على بال وجود عالم آخر غير عالم الأكل والشرب والمأوى . ولو نشأ أدب بين فصيلة من الحيوان لكان هذا الأدب فى رأيى قائماً فى جملته على مشكلات العراك على صيد الفريسة ولا تقتصر خياله على الحلم بأن فى بطن كل سبع غزالا سميناً ، وفى فم

كل حيوان فى الغاب صغر أو عظم غذاء موفوراً بغير وثب ولابحث ولا تربص بل فلنأخذ مثلا جماعة النحل أو النمل وقد بلغت من الدقة والتناسق وروح التضامن فى نظامها الإجتماعى ماأثار الدهشة ، هذا المجتمع الذى شيده النحل على هذا الأساس من «الوعى الاجتماعى» لا « الوعى الفردى » لوقامت فيه نحلة شاعرة أو أديبة ، أو ظهر فيه أدب وشعر ، فما يكون نوعه واتجاهه ومراميه ؟ لاشك عندى أن هذا الأدب أو الشعر سيكون له عين المرامى التى ينزع إليها الأمريكان ويتمناها لنا أحمد أمين . سيتحدث أدب النحل وشعره عن الأزهار من حيث كمية عسلها ، ونصيب كل عامل من عمال النحل فى نقله وإعداده والانتفاع به فى الخلية ، وعن حقوق الطوائف العاملة وواجباتها ، ومشكلاتها اليومية وشئونها الحيوية . أما الذى لن يحدث أبداً فهو التفات النحل فى أدبه أو شعره إلى حسن الأزهار فى ذاتها ، وإلى بهائها فى ألوانها ، وإلى تمايلها اللطيف مع النسيم كأنها تراقصه ، وإلى تفتحها ابتساماً للفجر وهى تعانقه ، وإلى نداها بدموع الليل وهى تفارقه . . . لن يفطن النحل إلى هذا أبداً . ولو فعل لانقلب إنساناً فى لحظة واحدة . كل فضل الانسان على غيره من المخلوقات أنه ارتفع إلى العناية بأشياء معنوية لاتتصل مباشرة بطعامه وشرابه ومقومات حياته المادية . وهذه الأشياء سماها فيما سماه : الفن والأدب ، وحرص على أن تبقى على قدر المستطاع بعيدة عن تفاهاته الأرضية ، لتذكره

من حين إلى حين أنه ليس حيواناً . وهنا عظمة الفن والأدب . ولكن مطامع الناس شاءت أن تمد أيديها الفانية إلى هذا الجوهر السامى لتسخره فى شئون الأرض ، فرأينا الشعر والأدب يتجهان إلى غايات نفعية ، فاستخدم الشعر أحياناً لمدح الملوك والأمراء من أجل المال والثراء ، أو لنشر الدعوة فى الدين أو السياسة من أجل الثواب أو الجزاء . ولكن كلمة الفن هى العليا دائماً ، وحكمه هو النافذ وحده . وها هو ذا قد حكم لامرىء القيس الجاهلى فرفعه وقدمه على داعية الاسلام حسان . وفى هذا الدليل على أن الفن الخالص لوجه الجمال الفنى هو الأرقى والأبقى وذلك مالا يسلم به أحمد أمين . فهو يعتقد أن الفن المسخر لخدمة الضرورات اليوميه فى المجتمع هو الفن الأرقى ، متأثراً ولا ريب بتلك النظريات الحديثة فى السياسة والاقتصاد التى ترمى كلها إلى تملق الجماهير ومداهنة الدهماء ومصانعة الجماعات والنقابات والهيئات ومسايرة الكتل والسواد من الناس والشعوب ، موهمة إياهم بجعل كل شىء فى خدمتهم . وخدمة الجموع معناها خدمة مصالحهم الأرضية المادية من مأكل ومشرب ومأوى ، لأن السواد والكتل لن يطلبوا أبداً ولن يقبلوا ولن يعرفوا غير هذا النوع المادى من المطالب . فاذا أردنا تسخير الفن فى هذه الأغراض فمعنى ذلك

الهبوط به إلى ذلك اللون من النحل . . . أو على الاقل إلى ضرب من أدب الدعاية والوعظ والهداية .

أما إذا كان فى الإمكان وجود فن يخدم المجتمع دون أن يفقد ذرة من قيمته الفنية العليا فانى أرحب به وأسلم من الفور بأنه الأرقى. ولكن هذا لا يتهيأ إلا للأفذاذ الذين لا يظهرون فى كل زمان . فمن أين لنا فى شعرنا بأمثال « المتنبى » ؟ لقد أعدت قراءة ديوانه منذ أسابيع لأنظر كيف بقى ذلك الشعر الذى خرج من وحى الدنانير . الحق أن المال كان باعثه ولكن الفن كان غايته . ذلك الذهن الذى أبدع صوراً ترى لها أحياناً حركة ويبصر لها بريق ويسمع لها رنين ، كما فى قوله :

وأمواه تصلُّ بها حصاها   صليل الحلى فى أيدى الغوانى

ماذا يعنينا منه أن يكون حافزه استجداء مال أو مدح ذى سلطان أو خدمة مجتمع أو تملق شعب ؟ المهم أن يكون هنالك فن قبل كل شىء . بغير هذا ما عاش لنا «المتنبى» حتى اليوم . فالسلطان يذهب والدولة تدول والشعوب تتغير ، ولكن الفن باق . .

أما بعد ، فليتجه الأدب العربى حيث شاءله أحمد أمين . وليخدم الجماعات ومشكلاتها الحالية ومسائلها اليومية ومطالبها المادية ، وليبتعد عن « الفردية » التى هى أساس كل فن ، والتى بغيرها لا يقوم فن وليتجنب « تراجم الأفراد أو ترجمة الكاتب لنفسه أو تحليل الأديب

لبعض الشخصيات أو روايات الغرام » أو نحو ذلك مما يراه صديقي من قبيل النزعات الفردية ، ولننكر الحقيقة القائلة إن « الفنان إذا لم يقل « أنا » فهو ليس بفنان ، كما أن العالم الذى يقول « أنا » ليس بعالم » لننكر ذلك مؤقتاً ولننتظر . . عسى أن يخرج لنا أثر فيه الفن وفيه منفعة السواد . .

الفن والاصلاح

لم يزل موضوع الأدب العربى ومستقبله فى حاجة إلى كلام ، على الرغم من الأدلة القوية التى ساقها أحمد أمين فى رده على كتبى السابقة. وأخشى أن يتبادر إلى الذهن أننا نتجادل فى قضية لنا فيها مصلحة. فالواقع المعروف أن أكثر مؤلفات أحمد أمين مثل « فجر الاسلام » و « ضحى الاسلام » و « قصة الفلسفة » الخ. بعيدة عن الاتجاه القومى أو الاجتماعى الذى يرجوه لأدبنا العربى ، كما أن بعض كتبى مثل « عودة الروح » و « يوميات نائب فى الأرياف » قدرمت بالفعل إلى هذا الهدف منذ زمن فالقصة الأولى (عند ما نشرت بالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧) كتب عنها ناقد يقول : (لو كان بريس Barrès [1] حياً واطلع عليها لنعتها بقصة النشاط القومى). كما أن الكتاب الآخر يرمى كما هو معلوم إلى نقد المجتمع الريفى بحكامه ومحكوميه ، فأنا إذن أقرب إلى تلك الدعوة ولى فى نجاحها مصلحة أكثر مما لصديقى أحمد أمين . ولكن العقيدة الأدبية والايمان الفنى أقوى فيما يبدو عند كل منا وأرفع من المصالح الخاصة والغايات الشخصية ، فمنا قشتنا اليوم تقوم فى جوهرها إذن على الرغبة المجردة فى الوصول إلى غرض واحد : هو كيف نبلغ بأدبنا العربى قمة الكمال ؟ الغاية واحدة ولا ريب ، ولكن

(١) الكاتب والسياسى المشهور صاحب المؤلفات القومية النزعة .

السبل مختلفة ، فأحمد أمين يرى أن أدبنا لن يصل إلى مرتبة الآداب الأوربية إلا خاض مثلها فى طريق الحياة العامة ، فنقد الفاسد من أوضاع المجتمع ، وقوم المعوج واقترح وسائل الاصلاح ، ونادى بالنافع من العلاج ، والمستحدث من النظم ، وكان له من أعلامه قادة للرأى العام يبصرونه بمواقع خطاه فى طريق التقدم الاجتماعى ، واتخذ من أناتول فرانس وبرنا ردشو وتولستوى مثلا يحتذى .

وهنا يجدر بنا أن نسأل : هل من الحق أن الأدب الأوربى بلغ مبلغه هذا بفضل نزوله معترك الحركات الاصلاحية ، أو بفضل قيمته الفنية ومزاياه الأدبية ؟ وهل نزعات الاصلاح الاجتماعى هى اللون الغالب فى الآثار الأوربية ، أو إنها لون ليس بالغالب حتى فى آثار المؤلف الواحد ؟

الذى أعلمه هو أن أناتول فرانس أديب ، وأن برنا ردشو مؤلف مسرحى ، وأن تولستوى قصصى . وتلك هى صفاتهم التى تؤخذ على سبيل الجد . أما ميول فرانس وشو الاشتراكية ونزعات تولستوى الاصلاحية ، فهى نواح ينظر إليها تارة بغير احتفال ، وتارة أخرى على أنها توابع أوظواهر ودلائل قد تفسر على ضوئها بعض أعمالهم الأدبية وآثارهم الفنية .

إن الآداب الأوربية لم تحترم يوماً فناناً أو أديباً لأنه مصلح ، ولكنها قد تحترم المصلح إذا كان أديباً أوفناناً . ولعل أبرز مثل

لذلك هو (إبسن) ، فقد هزته أحداث بلاده السياسية والاجتماعية فكتب تمثيليات مفعمة بروح الاصلاح مثل (براند) و (عدو الشعب) و (بيت العروس) الخ . ومات إبسن وتغير مجتمعه ونظر الناس فى أعماله . . . وكاد يهزأ النقد به وبآرائه فى السياسة والمجتمع ، لولا فنه وهكذا مات المصلح فى إبسن وبقى الفنان .

نحن الشرقيين تبهر عيوننا دائماً كلمة (مصلح) بقدر ما نستهين بكلمة (فنان) ، وإنى لا أنسى دهشى يوم قرأت فى مجلة (ماريان) الباريسية نقداً للطبعة الفرنسية من (يوميات نائب فى الأرياف) للناقد المعروف (رامون فرنانديز) يقول فيه : (إن القارىء لهذا الكتاب ينسى فى أغلب الأحيان المقاصد الاصلاحية التى حركت المؤلف لوضع كتابه ، بل إن القارىء يتمنى ألا يتغير شىء فى عالم هذه المخلوقات الانسانية) صدمنى هذا القول لأنى كنت أعتقد أن مقاصد الاصلاح لها الاعتبار الأول فى مثل هذا النوع من الكتب ، وأن صفة المصلح هى التى يجب أن توضع موضع التقدير .

لقد تحدث الأستاذ أحمد أمين فى أكثر من موضع عن الروايات الغرامية وعرامة الحب بما ينم عن الازدراء . . فذكرنى ذلك من فورى برواية شكسبير (روميو وجولييت) ، وقلت فى نفسى : هاهى ذى قصة ليس فيها إصلاح لمجتمع ولا نهوض بشعب ، وكل ما فيها عرامة الحب . ومع ذلك فقد خلدتها الإنسانية حيث طرحت

ومزقت كثيراً من صفحات المصلحين وكتابات الهادين والمرشدين . إن الإنسانية لا تدرى بما يسرها وأعلم بما يسعدها منى أنا ومن أخى أحمد أمين . كم من المؤلفات المملوءة بالارشاد والإصلاح قد نشرت وظهرت ولم تحتفظ بها ذاكرة الزمان.. ولكنها احتفظت بقصة غرام وقصيدة غزل ورواية حب عارم . . وإذا كان حقاً أن الزبد يذهب جفاء وما ينفع الناس يمكث فى الأرض فماذا نقول فى بقاء (روميو وجولييت) وفناء الكثير من القصص الانكليزى الذى قصد به إصلاح المجتمع؟ بل ماذا نقول فى خلود قصة (غادة الكامليا) لدوماس الصغير وموت أكثر رواياته الأخرى التى عالج فيها موضوعات اجتماعية كلها جد وحسن قصد .

كلا . لا ينبغى أن نملى على الفن اتجاهاً بعينه . ولا يجوز لنا أن نوصيه بارتداء لباس الحكمة الرزينة أو رداء الاصلاح الوقور.. إلا أن يشاء هو ويرضى . . لأننا إذا أرغمناه سخر منا وجعل من أردية رزانتنا ووقارنا أثواب مساخر ، وقلب بسحره أثواب الهزل خلوداً تنحنى أمامه الجباه على الرغم منا . لقد أصاب (أندريه جيد) إذ قال إن الفن لا ينبغى له أن يثبت شيئاً ولا أن ينفى شيئاً . إن الفن العالى ليس أداة للجدل . إنما هو شىء كالسحر ينفذ إلى النفوس فيحدث فيها أشياء . إن الفنان ليس مصلحاً ولكنه هو صانع المصلح كل أولئك المصلحين من ملوك وزعماء وساسة ما كونهم وهيأهم

لرسالات الاصلاح غير أدب الادباء وشعر الشعراء وفن الفنانين إن الفنان هو مصلح المصلح ولا شىء غير ذلك . أما أن ينزل الفنان بفنه إلى الميدان يناقش و يدافع و يهاجم و ينافح . فهذا مالم نره حتى الآن فى فن استحق البقاء فى أى أمة من الامم أو حضارة من الحضارات . من الحق أن بعض أهل الفكر والفن قادوا الرأى العام فى بلادهم و بلاد العالم، ولكنهم كانوا فى الواقع يفعلون ذلك باعتبارهم شخصيات عظيمة مفكرة من واجبها أن تبدى آراءها فى المسائل الكبرى ، لا باعتبارهم فنانين يقحمون فنهم فى ميادين الشئون اليومية . لطالما تحدث الشاعر « فاليرى » عن المشكلات الإنسانيه التى تمس المجتمع العالمى الحاضر ، ولكن هل رأيناه وضع ذلك فى قصيدة واحدة من قصائده ؟ إن قيادة الرأى العام واجبة على الأديب . ولا ينسى أحمد أمين ندائى إلى الأدباء أن يتسلموا القيادة الروحية والفكرية فى أول هذه الحرب وماقام حول هذا النداء من جدل، ولكن الذى أراه خطراً على الأدب هو قهر الأديب على أن يتجه اتجاهاً بعينه فى صميم فنه . وحسبنا أن نتأمل حال الأدب فى البلاد الدكتاتورية التى كبلت وحى الادباء بالقيود . فلم تخرج من قلوبهم إلا كتابات مفتعلة تفوح برائحة واحدة كأنها خارجة من مطبخ واحد . إن الفن هو الحرية ، حرية الفكر والشعور . ولا منبع له إلا فكر الفنان وقلبه ، هما وحدهما الهاديان له . إن الوعى الفردى هو روح الفن ، فاذا أردنا إبادة الفن واستئصاله من الأرض فلنقتل فيه ذلك الوعى

الفردى . ولقد أصاب صديق الطرفين الكاتب الكبير العقاد إذ قال فى تعليقه على مناقشاتنا هذه : « إن اتجاه التاريخ الانسانى متقدم من الاجتماعية إلى الفردية » . وهذا حق ، إذ الفردية هى عنوان الكرامة الانسانية . هى شعور الانسان بقيمة فكره وإحساسه لا بفكر الجماعة و إحساسها . إن الحيوان لا يفكر بفكره ولا يحس باحساسه . إنما هو يفكر ويحس بغريزة الجماعة كلها والنوع كله . ولن يرقى الحيوان إلى مرتبة الانسان إلا إذا استقل فى تفكيره وإحساسه . إن الوعى الاجتماعى فى الحيوان هو الذى جعل الحيوان حيواناً والفردية أى الحرية هى التى جعلت الانسان إنساناً . على أنه لاينبغى الخلط بين الفردية والأنانية . فانى حينما قلت إن « الفنان الذى لا يقول (أنا) ليس بفنان ، كما أن العالم إذا قال (أنا) ليس بعالم » . إنما قصدت إلى المعنى الفنى لا المعنى الخلقى قصدت أن الفنان هو الذى يقول « إن الطبيعة جميلة » . لأنى أراها جميلة أما العالم فلا ينبغى له أن يقول ذلك ، ولكن عليه أن يقول : « الطبيعة جميلة أو قبيحة ، ساكنة أو متحركة ، لأن البحث والتحليل والبرهان والدليل تؤدى إلى هذه النتيجة » . الفنان هو الذى يكشف عن الطبيعة من خلال نفسه المجهر . والعالم هو الذى كشف عن الطبيعة من خلال المجهر وكلاهما يكمل الآخر فى بناء المعارف الانسانية ولا ينبغى لأحدهما ان يلجأ إلى وسائل الآخر فى استجلاء الحقائق واستكناه

الطبائع . إن الفن مصدره الشخص ، والعلم مصدره الموضوع . الفن شخصى والعلم موضوعى . الفن يقول « أنا » أى « نفسى » ، والعلم يقول « هو » أى « الشىء »

أما أن يخدم الفنان والعالم أمته وقومه فهذا واقع بالبداهة والضرورة ، لأن آثار الفن والعلم لا تبقى ولا يمكن أن تبقى إلا إذ رأى الناس فى بقائها منفعة . فلا ينبغى أن نقول للفنان والعالم : « إصنعا شيئاً نافعاً للناس » بل يجب أن نقول لهما فقط : « إصنعا فناً وعلماً »

منابع الفن المصرى

فى عام ١٩٣٣ عقب نشر كتابى « أهل الكهف » جاءنى أديب صحفى يحادثنى فى شأنه ويسألنى فيما حملنى على اختيار موضوعه ، فأجبته :

— حملنى على ذلك شىء واحد : الرغبة فى كتابة مأساة مصرية على أساس مصرى . إنك تعلم أن أساس المأساة الاغريقية هو « القدر » . هو ذلك النضال الهائل بين الانسان والقدر ! فهل تعلم ما أساس المأساة المصرية كما أتصورها ؟ أساسها : « الزمن » ، أساسها ذلك النضال الهائل بين الانسان والزمن . اقرأ « كتاب الموتى » تحس ذلك للفور عند الاغريق هو « القضاء والقدر » وعند المصريين هو « الزمان والمكان » ، لكل من الشعبين تنين مخيف كتب على الانسان قتاله ! وأنت ترى أن « تنين » المصريين وهو « الزمان والمكان » رأسه فى هذه الأرض وذنبه فى العالم الآخر المجهول . نعم إن مصر لا يمكن أن تفكر فى غير الخلوص إلى حياة أخرى . دائماً ماوراء الطبيعة . دائماً الفلسفة الدينية . دائماً ذلك الفزع من الموت وذلك الأمل فى انتصار الروح على الزمان والمكان ! وذلك الانتصار إنما هو فى « البعث » .. بعث لا إلى عالم آخر لا يعرف الزمان والمكان ، وإنما بعث إلى عين هذا العالم ونفس هذه الأرض بزمانها ومكانها . ولقد شيدوا الأهرام لتقوى على هذا التنين . حصون الروح فى حربها المخيفة مع عناصر الفناء الآدمى .

التحنيط كذلك اختراع آخر ولدته ضرورة الدفاع في تلك الحرب الضروس ! أين تلك الحروب من حرب طروادة ! لم تكن مصر في حاجة إلى هوميروس منها يسطر أخبارها : لأن صليل تلك الحرب لا يوصف من قلم بشرى . إنها صيحات الروح تدوى طول الأبد من بين سطور « كتاب الموتى » . إن أعظم مأساة لم تدون ولا يمكن أن تدون : المأساة المصرية ! . وبعد هذا تسألني ما الذى حملني على كتابة « أهل الكهف » ؟ إنها صورة ضئيلة وصدى خافت لتلك المبارزة بين « الزمن والانسان » وفى قصتى (شهر زاد) صورة أخرى لمبارزة بين (الانسان والمكان) .

— إذن أنتم تقولون باستيحاء الفكر المصرى القديم ؟

— إنى أقول باستيحاء كل ما هو مصرى .

— وكيف نميز ما هو مصرى عما هو دخيل على مصر وقد دخلت مصر وتداولتها حضارات مختلفة ؟

— فى مصر أفكار ثابتة لم تتغير إلا قليلا منذ عهد الأساطير الأولى حتى اليوم . ذلك لأنها متصلة بصميم هذه الأرض ، ومستوحاة من نفس طين هذا الوادى الخصيب ، ومن نفس هذا النيل الخالد . إن أفكار الانسان وعقائده ودياناته وخرافاته إنما تولد من مظاهر الحياة التى حوله . ما اليونان بأساطيرها وفلسفتها بغير البحر المتوسط وجزر اليونان ؟ وما أساطير النرويج بغير الغابات وبحر الشمال ؟ وما

فلسفة الهند بغير نهر الجانج المقدس وأدغال الهند ! ؟ ؟ . كذلك هل يتصور تفكير مصرى بغير هذه الأرض الخصبة البطحاء التى تلد الخير فى كل عام دون أن يصيبها العقم أو يبدو عليها الهرم ؟ شبابها خالد . هذا الشباب الذى تفهمه مصر حق الفهم . وهاهى ذى آثار مصر منـذ الأزل من تماثيل وصور على حيطان المعابد ، هل شاهدت فيها تمثالا واحداً يمثل إنساناً هرماً ؟ كل تماثيل مصر وصورها تمثل الشباب لأن كل مظاهر الحياة فى مصر من أرض وماء وسماء فتية قوية رقيقة تتجدد وتبعث وتوحى بالحياة الدائمة . إن العمر لاوزن له فى مصر . آلهتهم وملوكهم وكهانهم وعبيدهم حليقون نحفاء لا يبدو عليهم عمر ولا سن ولا أثر واحد من آثار الزمن . شباب وفتوة وقوة كهذه الأرض السوداء البطحاء ، التى ماوخطها قط المشيب . إن الزمن لا وزن له عند مصر ، خوفاً منه واحتقاراً له ، أو حفيظة عليه . كل ذلك جائز . إنما الواقع أن مصر كانت تؤمن إيمانا عجيبا بانتصارها على الزمن رمز (العدم) ، بالبعث الدائم

فها هو ذا النيل فى انتظام يحيا و يموت مرة فى كل عام . موت و بعث ، و بعث ثم موت . هكذا دواليك كساقية النيل ذات الجرات الحمراء ! من هذا النيل خرجت أساطير البعث ، وفى هذه الارض الجميلة الدائمة الخصب نشأت فكرة الخلود وقتال (العدم) تشبثاً بهذه الأرض المحبوبة التى لم تخلق الآلهة جنة سواها ، فهى المرجع

والمـآب ، يموتون عليها ويعودون إليها . موت ثم حياة ثم موت . . وهكذا إلى أبد الآبدين . لا الموت يفنى ولا الحياة تفنى . شأن هذا النيل فى حياته وموته .

تلك فكرة أساسية من أفكار مصر الثابتة . ولدت فى العهد الفرعونى الوثنى الأول ، فهل تلاشت مع العهد المسيحى أو مع العهد الاسلامى ؟ كلا لم تتلاش . ولم تكن مصر تقبل اعتناق المسيحية أو الاسلام ديناً لها لو لم تجد فى هذين الدينين فكرة البعث فى جوهرها ولبها . ولقد رفضت مصر دين إسرائيل لخلوه من تلك الفكرة التى لاتعيش مصر بغيرها ، البعث هو نشيد مصر الخالد . . يغنيه النيل فى كل عام . . والنبات والطيور والسماء والشعراء !

— اذن البعث والزمن من أفكار مصر الثابتة التى تصلح وحياً للأدب المصرى الحديث فى رأيكم ؟

— بلا شك ، وفكرة أخرى : قوة القلب . بغير قوة القلب أى قوة الايمان والحب ما كانت مصر تستطيع أن تنشىء هذا الفن العظيم الذى انتصرت به فعلا على الزمن ولا تزال تنتصر به عليه فى كل جيل . وقلب الفنان المصرى الذى نحت تمثال (شيخ البلد) أو تمثال (نفرتيتى) مازال ينبض بالحياة ، ويحس حياته رواد متحف اللوفر ومتحف برلين !

— ومصر فى عهد المسيح والاسلام ؟

— مصر فى العهد المسيحى كان فيها أدب قصصى دينى صوفى رائع تلمس فيه الشخصية المصرية بأفكارها الثابتة ووسائلها الخاصة أكثر ممـا تلمح فيه الطابع الرومانى . ومصر الاسلامية شيدت مساجد ضخمة المظهر قوية البنيان بسيطة التفصيل ، لولا أسلوب البناء الاسلامى لخلتها معبداً فرعونياً فى عظمة الأثر الذى تحدثه فى النفس. ذلك أن فن العمارة الاسلامى يسمو بالزخرف لا بالبناء . والفن الفرعونى المعمارى يتفوق بالبناء لا بالزخرف . لهذا السبب كان الفرق ملحوظا بين بعض مساجد مصر الشهيرة (قلاوون) و (السلطان حسن) الخ الخ ، وبين المساجد الأخرى فى غير مصر ، وكذلك كلما استوحى الفنان المصرى تاريخ قلبه وأرضه ، أنتج فناشخصياً لا صلة له بغير هذا القلب وهذه الأرض . وقس على ذلك الشعر والقصص الذى ظهر فى مصر الاسلامية مفعما بروح هذه الأرض لا بروح البادية أو وحى أمة أخرى .

وما قولـكم فى الأسلوب الأدبى الذى يميز مصر ويطبعها بطابع خاص ؟

— الأسلوب هو مزاج الفنان وطبيعته ووسيلته الخاصة فى إظهار مكنون فـكره أو هو الشخص كما قال (بوفون) . هذا صحيح إلى حد ما : إن الـكاتب إذ يخلو إلى نفسه وقلبه ويترك التصنع والتقليد يستطيع أن يهتدى إلى أسلوبه . لـكن لا تظن الطريق هيناً : ذلك

الطريق الوعر الطويل بين الانسان وقلبه ! إن القلب البشرى لأعمق من أن يستكشف قراره من أول نظرة ، إن قلب الإنسان بئر سحيقة رسبت فيها تجاويب جنسه وأمته آلاف السنين طبقة فوق طبقة . فعليه إذن أن ينزل طبقات هذه البئر . وهأنذا أعود بك إلى نغمتى الأولى : حتى الأسلوب ينبغى لنا أن نبحث عنه فى أرض مصر وفنها على مدى الأزمان . ولقد سبقنا إلى ذلك البحث أمم الغرب مع الأسف . الفن الحديث كله من تصوير ونحت وعمارة انطلق يبحث عن وسائل جديدة للتعبير فوجدها فى مصر القديمة : وجد البساطة فى التخطيط . وجد طريقة تركيب الأشكال المختلفة على قواعد هندسية (الكوبزم) ، وجد وسائل التعبير عن حقائق (الشكل) التى تخفى على العين العادية . وجد أساليب الحركة والاضاءة فى التماثيل والأعمدة ممالا نظير له فى قوة الأداء و بساطته كل ذلك وجده الغرب وشيد على أساسه فناً جديداً . ونحن نستطيع أن نجد أكثر من ذلك لو بحثنا طويلا وتأملنا مليا . إن كنوز قلو بنا العميقة لاقاع لها ، وهى أدنى إلى أيدينا من الغرباء

— وأى أسلوب اخترتموه لأهل الكهف ؟

— لست أعرف . على النقد أن يجيب . إن المؤلف لايقع فى الخطأ إلا عندما يحاول الكلام فى عمله . إن الانسان لا يستطيع أن يرى ملامحه أو يصفها إلا بالمرآة ، والنقد هو المرآة .

— وهل ستقدمون أهل الكهف للتمثيل ؟

— إنى لم أكتب هذه القصة للتمثيل ، ولو كان فى مقدورى معالجة الفكرة فى قصيدة أو فى صورة زيتية أو فى قطعة موسيقية لفعلت . إنما كانت وسيلتى فى إخراج الفكرة هى الحوار . ذلك القالب الذى أحبه بين قوالب الأدب . ومع ذلك أليست القصة التمثيلية أحيانا شكلا من أشكال الأدب ، لها كيان مستقل منسق كالقصيدة والصورة والهيكل الهندسى ، ذات جمال فى التركيب وتناسب فى الفكرة يوحيان باللذة الفنية لذاتها . إن التمثيل أحيانا إن هو إلا مجرد تفسير وليس ضرورة أو غاية أو إتماما للقصة التمثيلية . إن مآسى سوفوكل ، ودرامات كاليداسا الهندى وفاوست تأليف، جوته لهى كلها أدب صراح ، تدخل على النفس بمجرد قراءتها لذة فنية كاملة بغير حاجة إلى مسرح وممثلين . ولقد أعدت النظر أخيراً فى مأساة (هيبوليت) لأيروبيد ففضلتها على (فيدر) لراسين . مع أن راسين راعى مقتضيات المسرح فى عهده وحذف (الكورس) . فوجدت أنا الجمال فى هذا (الكورس) المحذوف ، ووددت لو أستطيع ادخال (الكورس) فى قصة أكتبها . نعم (الكورس) الآن فى أواخر القرن العشرين سأعيد اليه اعتباره يوماً . إنما فى لون آخر وبروح أخرى مستمدة من (كتاب الموتى) ، وأوراق البردى [1] . نعم إن (الكورس)

---

(١) أرسل إلى « أتيين دريوتون » مدير مصلحة الآثار المصرية بحثاً

الخفى الذى أسمع همسه الغريب ، وآهاته المتقطعة ، ونوحه المخنوق ثم هدوءه العميق ، ثم نهوضه وصياحه وإعلانه الانتصار ! . . لهو شيء بعيد عن المسرح قريب من المعبد ، عسير على الكلام تفسيره ، مستطاع للموسيقى وحدها التعبير عنه .

= خاصا بالمأساة فى مصر القديمة ، ضمنه ترجمة دقيقة لأجزاء من حوار أبطال قصة مقدسه وكلام « الكورس » كما وجد حديثاً فى بعض أوراق البردى . وقد أدهشنى جمال القطعه ، كما أنها قد كشفت للعالم در وتون ولبعض زملائه من مشاهير علماء الآثار فى العالم عن منبع « المسرح الاغريقى القديم » إذ تبين أن هذه القطعه التمثيليه تشمل قسمين قسم كلامى وقسم غنائى ، وأنها كانت تمثل في المواسم الدينيه . فالغناء إذن والكورس والرقص الديني الذى عزا إليه «نيتشه» أصل التراجيديا الاغريقيه ، إنما يرجع إلى أصل أقدم منه هو «التراجيديا المصريه القديمه» .

الثقافة الشرقية

إذا كنت قد أطلت الكلام في روح مصر وتراث مصر ، فما ذلك عن رغبة في حبس تفكيرنا في حدود قوميه ضيقة . إنما أنا أرمي الى غاية أبعد وأرحب . إني أريد تدعيم الثقافة الشرقية كلها ، والعمل على إنهاضها لتقف إلى جانب الحضارة الغربيه قوية غنية . وهذا الغنى لن يأتي إلا إذا عطف كل بلد من بلاد الشرق في أول الأمر على نفسه ، ليستخرج من بطن الارض التي يحيا عليها كل كنوز ماضيها ، حتى إذا اجتمع لدى تلك البلاد قدر عظيم من تلك اللآلىء القديمة مجلوة منزوعاً عنها التراب ، صب ذلك الثراء كله في معين واحد مشترك ، وقدم إلى الإنسانية باسم : « الثقافة الشرقية » . على أن الذي يدعو إلى الأسف والألم أن بعض المفكرين الشرقيين أنفسهم يشكون ويشككون في حقيقة وجود « الثقافة الشرقية » . أولئك هم الذين قد بهرتهم انتصارات « الثقافة الغربية » المسيطرة الآن على العالم ، فأعمتهم أشعتها الساطعة ، وأقعدتهم وأسجدتهم يسبحون بمجدها ويفركون أعينهم التي لا ترى شيئاً غير هذا النور الكثير .

ذلك هو العمى ، والعقم ، والكسل . كذلك لا أقر تلك الفئة الاخرى من الشرقيين الذين يظنون أن التحمس للثقافة الشرقية معناه الجلوس متدثرين في أطمار حضارات بالية يصعرون خدودهم

ويصيحون بألفاظ نعرة مضحكة وفخر كاذب. ذلك أيضاً هو العمى ، والعقم ، والكسل . إنما إنهاض الثقافة الشرقية لا يكون إلا بنهوض الشرقيين إلى العمل فيبدأون أولا بالجرى واللحاق بما وصلت إليه الثقافة الغربية . تلك الثقافة التي أضافت اليوم كثيراً على ما استطاعت أخذه من الحضارات الأولى .

فثقافة الغرب خصوصاً في العصر الحديث لا تهمل شيئاً أنتجه العقل البشرى في أى عصر من العصور وفى أى بقعة من البقاع : فالأوربيون قد أفادوا من الفلسفة الهندية والصينية (شوبنهور ونيتشه)، وحتى من الثقافة العربية والشعر العربى (جوته وهاينى) ولكنهم طبعوه بطابع فنهم وتفكيرهم . ذلك أن حب المعرفة والاستطلاع لا يمكن أن يسمح لرجال الفكر الحقيقيين بالاقتناع بلون واحد أو الوقوف عند حد معلوم . فالاوربيون دائماً يأخذون ما عند غيرهم من ثروة فكرية ليصبوه فى قالبهم .

فأوربا إذن على ثروتها وغناها الثقافى اليوم لم يخطر ببالها قط أن تتقاعد عن قطف ثمار أية شجرة أخرى. إن الفكر البشرى ليس له حدود « دولية » إنما هنالك المزاج الخاص والطبيعة الخاصة التى تكيف تلك الثروة المباحة التى تنهل منها كل ثقافة وكل حضارة إن الحضارة الاوربية فى الحقيقة لم تخلق بيديها خلقاً كل هذه القوالب المعروفة فى آدابها وفنونها ولا كل هذه النظريات الشائعة فى

فلسفتها وعلمها. فان كثيراً من هذه القوالب والنظريات مأخوذ عن الشرق في حالته الأولية ولكن الأوربيين زادوا عليه وأضافوا إليه وأخرجوه ممهوراً بامضائهم ومطلياً بشخصيتهم. وهذا في الواقع عمل كل حضارة من الحضارات. ولا نستثنى من ذلك الحضارة الإسلامية نفسها في عصورها الزاهرة فما هي إلا اجماع أفكار وثقافات وحضارات أمم مختلفة صبها الإسلام في قالبه وجعل منها لوناً خاصاً.

فالثقافة الشرقية إذن لا يمكن أن تكون اليوم بمعزل عن ثقافة أوربا ولا أن تغمض عينيها عن هذه الثروة الهائلة، فلنمد أيدينا إذن غير مقيدين بسلاسل التقاليد أو العادات أو العقائد، فنأخذ كل شيء، ونهضم كل شيء، ثم نعرج على روحنا القديم كل في بلده، فنستخلص الأفكار الثابتة المدفونه، إذ لا ريب أن كل بلد من بلاد الشرق فيه مناجم للفكر مفعمة متألقة لم تستخرج بعد. فالغرب على نشاطه الفكرى ونهمه الذهنى لا يستطيع أن يستخرج كل كنوز الشرق مثل الشرق، إذ لا بد أن تكون معاوله قد ارتطمت بحواجز منيعة من أسرار طبيعية لا تكشفها غير طبيعة الشرقى وغرائزه وتجاريب حكمته المتراكمة في أعماق نفسه على مدى آلاف السنين.

فاذا تم لنا ذلك، فاننا نستطيع أن نطبع كل تلك الثروة وكل تلك المادة بطابعنا الخاص، على نحو ما حدث عندما اختلفت طبائع

الدول الشمالية فى أوروبا عن طبائع الدول الجنوبية ، فتفرعت عن الثقافة الواحدة ثقافتان هما الثقافة اللاتينية والثقافة الانجلوسكسونية ثقافتان لا تختلفان من حيث مقدار الثروة الذهنية ، وإنما تختلفان فى الطابع والمزاج والروح . فاذا كان فى مقدورنا نحن أن نضيف إلى هاتين الثقافتين العظيمتين ثقافة ثالثة لا تختلف عنهما فى مبلغ ثروتها ومادتها وإنما تخالفهما فقط فى الطابع والطبيعة والروح ، ثقافة ثالثة حية نامية جميلة عليها خاتم شخصيتنا الشرقية ، يراها الغرب فكأنه يرى شيئاً جديداً مستقلا ، قد أخرج لهم من صدر عبقرية جديدة ، فاننا نكون قد أدينا رسالتنا إلى هذا العالم ، وامكننا أن نساير الفكر البشرى فى تطوره وأن نساهم بعملنا ومواهبنا فى بنائه العظيم ، وأن نظفر أخيراً باحترام هاتين الثقافتين الحيتين القائمتين ذلك الاحترام الذى تنظر به إحداهما إلى الأخرى . ويسترد (الشرق) عندئذ اعتباره فى نظر (الغرب) .

كتلة «الروح الشرقى»

سألنى سائل عن رأيى فى الوحدة العربية. فأحلته على آرائى السابقة وقلت له إنى لم أغير موقفى . فأنا على الرغم من رغبتى فى تكوين شخصيات فكرية مختلفة ووحدات سياسية مستقلة لكل أمة من الأمم العربية والشرقية ، فانى أحب أن نتذكر دائماً أننا إزاء الغرب لنا صفة واحدة تجمعنا وينبغى أن نحافظ عليها . فأوربا اليوم عندما تبين لها خطر الحروب التى تقوض المدنيات ، قد ارتاعت وأرادت أن تحافظ على مصير ماتسميه (الروح الأوربى) ، فأقامت من أجل ذلك المؤتمرات دعى إليها كبار مفكرى الأمم الأوربية ليدرأوا الأخطار التى تهدد هذا الروح الأوربى المريض . ونحن الشرقيين لنا من غير شك كذلك مانستطيع أن نسميه (الروح الشرقى). إن طابعنا الفكرى وطريقة نظرنا إلى الأشياء ، وتقاليدنا ، و إحساسنا بالجمال الذهنى ، ومشاعرنا نحو مظاهر الطبيعة المختلفة ، وأسلوبنا فى التعبير عن حقائق الأشياء ، كل ذلك ينم عن عقلية خاصة وعبقرية مستقلة لا ينبغى أن تتحلل وتتلاشى تحت طغيان موجة أقوى ! فاذا نادينا بالوحدة العربية فانما ذلك لندعم كتلة (الروح الشرقى) أمام كتلة

١٩٥١/١/٢١

نداء بالوحدة العربية [illegible]
[illegible]

احياء الثقافة العربية القديمة

سألتني مجلة عربية عن هذه المسألة فقلت :

تسألونني كيف نعمل على إحياء ثقافتنا العربية القديمة ؟ وهل ماتت هذه الثقافة حتى نطلب إحياءها ؟ إن الثقافات والحضارات لا تموت ولكنها تهضم فى ثقافات أخرى وحضارات أخرى . فالثقافة العربية القديمة قد امتصتها واحتوتها الحضارة الأوربية القائمة ضمن الذى امتصت وهضمت . فمادة الثقافه لا تنعدم ولكنها تتحول إلى ثقافة جديدة وتدخل فى تركيب حضارة جديدة ، فالقول باحياء الثقافة العربية القديمة أو الثقافة الإغريقية القديمة قول لا أستطيع أن أفهم له معنى . فالحضارات إنما تقوم على الحضارات . وهيكل الحضارة القائمة إنما ينهض على طبقات متعددة من حضارات سابقة . فلو فرضنا المستحيل وأردنا أن ننزل طبقات ونرجع إلى ثقافة قديمة بعينها وحالتها وكميتها الغابرة ، فماذا نجد فيها غير شىء أولى الى جانب ثقافة العصر الحاضر ! أما إذا كان المقصود من كلمه الاحياء لا إحياء الثقافة القديمة بعينها وحالتها وكميتها إنما المقصود إحياء المجد الغابر والمكانه والازدهار الذى لفت الأنظار الى الثقافة العربية القديمة فى عصرها ، فهذا شىء آخر ، وهذا أمر ممكن لو أننا عملنا واجتهدنا فى سبيل إحداث نهضة ثقافية يشعر بهزتها العالم المتحضر . ووسائلنا فى هذا هضم كل ثقافة موجودة

قديمة أو حديثة وإخراج ثقافة جديدة تنم عن روحنا وشخصيتنا الشرقية، تستطيع أن تقف جنباً إلى جنب مع الثقافتين العظيمتين الحاضرتين، اللاتينية والانجلوساكسونية .

أما الوسيلة الفعالة لتوليد ثقافتنا الشرقية الجديدة فان الطريق إليها هو الطريق الذى اتبعته كل حضارة من الحضارات المعروفة أعنى به : « القيام بحركة ترجمة واسعة النطاق » ولا يغنى التلخيص عن الترجمة . فنحن بازاء نهضة فكرية يجب أن تشيد على دعائم قوية . وكما أن عصر النهضة الذى تلا القرون الوسطى فى أوربا قام على حركة ترجمة المؤلفات الإغريقية ، وكما أن نهضة الثقافة العربية القديمة فى عصورها الزاهرة قامت على حركة ترجمة المؤلفات الهندية والفارسية والإغريقية، كذلك نهضة الثقافة العربية الشرقية الحديثة يجب أن تقوم على ترجمة أمهات المؤلفات الأوربية المعتمدة فى الفروع المختلفة ، وهذه المؤلفات من السهل معرفتها . فما من أمة متحضرة وما من لغة حية إلا اتحدت فى كتب خالدة معينة بالذات لابد أن تعرف فى لغتها وفى كل لغة حية . ففى فرع الأدب مثلا لا نجد اليوم لغة حية ولا أمة متحضرة لم تنقل الى لغتها كل أعمال « هوميروس » و (سوفوكل) و (شكسبير) و (موليير) و (جوته) الخ وفى الفلسفة والعلوم والفنون أسماء كهذه يضيق بى المقام عن تعدادها هنا . وهى على كل حال معروفة لكل مثقف . ولكن المهم هو إجماع الرأى فى الشرق العربى الحديث

على القيام بحركة ترجمة عظيمة واسعة . . . ولننفق فى هذا السبيل الأموال ، فان ربحنا سيكون عظيما ، وسنشترى بهذا حياة لغتنا العربية ، وسنضع بهذا كل أساس نهضتنا الفكرية التى قد يسجلها التاريخ كنهضة للفكر الشرقى لاتقل فى أهميتها عن نهضة الفكر الغربى التى ختمت القرون الوسطى .

أثر أوربا فى أدبنا الحديث

سألتنى كذلك مجلة شرقية أدبية عن مدى تأثير الأدب الأوربى فى أدبنا العربى الحديث ، فقلت :

إن الحضارة لا تبلغ أوجها حتى تبسط جناحيها على العالم المحيط بها فتؤثر فى مجرى الأفكار فى كل شعب وقارة ، وتغير من طابع الأساليب المختلفة وتطبعها بروحها الخاص الذى جاءت به ، كذلك كانت الحضارة الفرعونية والإغريقية والرومانية والمسيحية والإسلامية الخ . . .

واليوم الحضارة القائمة هى الحضارة الأوربية ، ولعل الحضارة الأوربية أشد الحضارات نفوذاً فى الشعوب على اختلاف ألوانها . ولعل ذا يرجع إلى تسخيرها العلم والطبيعة فى تيسير سبل المواصلات بما لم يعهده العالم من قبل ، فالسفن البخارية والقطارات السريعة والطيارات والراديو والسينما كلها وسائل عجيبة فعالة فى سرعة إذاعة الأفكار الأوربية ونشرها . إن الكرة الأرضية اليوم ليست إلا برتقالة فى مخلب هذا النسر الأوربى . ولا مناص لأمة من الأمم أن تجهل أو تتجاهل هذه الحضارة رضيت أو كرهت .

لذلك كان من الطبيعى للشرق ولا سيما أمم البحر الأبيض أن تتأثر إلى حد كبير بالحضارة التى تهيمن اليوم لا على البحر الأبيض

وحده بل على كل بحار الارض. فالقول بأن الأدب العربى الحديث تأثر بالفكر الاوربى هو البديهة بعينها. وينبغى لهذا الأدب أن يتأثر بالحضارة الموجودة الحية إذا أراد أن يحيا وأن ينتشر وأن يفهم ويعترف به فى الأرض عامة وفى بلاد هذه الحضارة خاصة. والأدب العربى فى كل عصوره القديمة تأثر بالفعل بالحضارات المختلفة، وجرى فى شرايينه الدم الفارسى والهندى والرومى.

والقول بأن الأدب العربى الحديث كان أشد تأثراً بأوربا بعد الحرب هو أيضاً قول يطابق طبيعة الاشياء. فالاتصال الوثيق بين الشعوب واحتكاك الافكار والمبادىء وتقدم المواصلات، كل هذا حدث بعد الحرب وبتأثير الحرب على نحو فجائى قوى يشبه الطفرة. ولقد أدرك الأدب العربى من احتكاكه بأوربا أن وسائل التعبير فى الأدب قد تطورت وأن الكتاب على اختلاف جنسياتهم قد تواضعوا على أن يلبسوا أفكارهم ثيابا متشابهة فى أغلب الممالك المتحضرة كما ألبسوا أبدانهم ثيابا متشابهة هى القبعة والسترة سواء فى ذلك الإنجليزى والفرنسى والروسى والايطالى.. الخ. فكان من الطبيعى أيضاً للأدب العربى الحديث أن يتأثر بهذا اللباس الأدبى الشائع كما تأثر الزى الشرقى إلى حد كبير بالزى الغربى. على أن الزى أو اللباس شىء والروح أو الشخصية التى فى جوف هذا الزى واللباس شىء آخر. ومهما يكن اتحاد الإنجليزى والإيطالى والأسبانى

والروسى فى شكل الزى فان الدم الذى يجرى فى شرايين كل منهم مختلف كل الاختلاف .

لذلك أحب أن أقول لأدباء العربية الحديثة : لا تخشوا مطلقاً من إلباس أفكاركم الأثواب الأوربية على شرط أن يكون طابع هذه الأفكار وروحها شرقياً محضاً . وأن يحس القارىء الأوربى إزاء أعمالكم أنه أمام نفس غير نفسه وشخصية غير شخصيته و إن كان الرداء ليس غريباً عليه لأن الرداء ليس ملكا لأحد : إنه ملك الحضارة ، والحضارة وليدة الحضارات التى سبقتها . .

الأدب العربى

فى الماضى والحاضر

اعتاد الباحثون فى الأدب العربى أن ينظروا دائماً إلى الماضى وأن يقصروا عليه كل جهودهم وأن يخصوه بكل التفاتهم ، زاعمين أنه لا أسلوب فى العربية إطلاقا إلا أسلوب الجاحظ ولا نثر عذب إلا عند ابن المقفع . حتى أدى هذا الزعم إلى حبس النشاط الذهنى على آثار الماضى وإلى الاعتقاد بأن مجد الأدب العربى الذى لن يعود إنما كان فى الماضى .

أثرت هذه العقائد فى تفكير الشرق العربى ، وكانت هى علة الجمود العقلى الذى أصيب به الشرق على مدى أحقاب ، حتى شعر الناس كأن باب الاجتهاد قد أغلق فما عادوا يسمحون لمداركهم أن تتذوق غير الادب القديم و إن لم يفهموا مراميه و يشعروا بملابسات حياته ، وما عادوا يسمحون لأدباء جيلهم أن يخرجوا عن دائرة تقليد هذا القديم و إن أحسوا من أنفسهم القدرة على إبداع ما يناسب روح العصر الذى يعيشون هم فيه .

غير أن التحرر الفكرى الذى انطلقت نسماته أخيراً على ربوع الشرق قد عدل كثيراً من هذه النظرات ، فنحن اليوم لانخشى أن نبدع تحت وحى الحاضر إنتاجا يختلف عما أبدع تحت وحى الماضى ،

ولا يخشى الناس أن يتذوقوا ويعجبوا بنتاج الحاضر كما يفعلون بنتاج الماضى ، ولا نخشى أن نضع الماضى والحاضر فى ميزان المقارنة وميدان البحث. نعم نحن اليوم قد تعلمنا أن نعتبر الأدب العربى شجرة واحدة نامية نستطيع أن ننقل عيوننا بين جذعها وفرعها وأغصانها وأمسها ويومها وغدها . . بل إننا لانتحرج اليوم من الاعتقاد بأن مستقبل هذا الأدب قد يكون أينع وأزهر من ماضيه على أن الجرأة فى الحكم مازالت تعوزنا .

أذكر يوماً جاءنى فيه أستاذ من أساتذة الأزهر فتحادثنا قليلا فى الأدب العربى فقلت له إن أساليبنا اليوم فى الكتابة خير من أساليب كتاب العرب الأقدمين من بعض الوجوه . فنظر إلىّ دهشاً كأنه لايصدق أذنه . فأدركت أن قداسة القديم مازالت تنسج على هذا العقل الجامد خيوط العنكبوت .

ولبثت وحدى أفكر فى الأمر وأسائل نفسى : ماوجه العجب فى هذا التفضيل . إنى من المعجبين بفن الكثير من الأقدمين أمثال الجاحظ وابن المقفع ولكنى مع ذلك لا أستطيع أن أقضى بغير هذا الحكم ، على أن من التعسف أن تقوم المقارنة على هذا النحو . فنحن الآن فى عصر مختلف كل الاختلاف عن العصور السابقة . حقا إن إدراكنا اليوم للفن أوسع ولا ريب من إدراك الجاحظ وابن المقفع. كما أن إدراك إينشتين للعلم أوسع من إدراك فيثاغورس . هذا لايمكن

أن يقوم فيه جدال . إنما الأمر الذى يصح أن نجادل فيه هو : أى الآداب وأى الكتاب استطاع أن يملأ عصره وأن يعبر عن روح عصره وأن يؤثر فى عصره ؟ إنهم يقارنون أحياناً بين « فولتير » وبين « برنارشو » . فى رأيى أن الأخير قد اكتملت لديه من الوسائل الفنية مالم يتهيأ مثله للأول . إن فولتير لم يبلغ قط فى قصصه التمثيلى مابلغه قصص برناردشو . ولكن أيهما استطاع بكتاباته أن يهز عصره هزاً ، وأن يحدث فى تفكير عصر تيارات قوية وأن يفرض وجوده على العروش والتيجان ، وأن يلقى بذور الانقلابات المقبلة فى نفوس الشعوب ؟ ثم سؤال آخر يجوز فيه الجدل : أى الأدبين ، العربى القديم أو الحديث استطاع فى جملته أن يقف الى جانب الآداب الأخرى المعاصرة ليؤدى معها رسالته إلى البشرية ؟ إن المقارنة بين أدب الأمس فى ذاته وأدب اليوم فى ذاته تؤدى غالباً الى ترجيح أدب اليوم . إنما المقارنة يجب أن تكون بين أدب الأمس فى عصره وأدب اليوم فى عصره . وهنا تختلف النتيجة بعض الاختلاف .

لا أحب مع ذلك أن أصدر أحكاما سريعة . . فان الحكم يقتضى أسبابا مطولة . وإن المقام ليضيق دون ذلك . إنما أحب فى ختام كلمتى أن ألفت نظر هذا الجيل الى أن يأخذوا الأدب العربى الحديث على سبيل الجد وأن يضعوه موضع الدرس

الى جانب الأدب القديم سواء بسواء . وأن يكثروا من المقارنة بينهما إذا شاءوا كما يقارن الإنسان بين الزهرة والزهرة فى شجرة واحدة . و بين الثمرة والثمرة فى اعوام متعاقبة . فان فى ذلك تذكيراً لهم بأن الأدب العربى كائن حى يتطور ويتغير ويتلون و يتأثر باختلاف الفصول والعصور !

كرامة الفكر

القوة الحقيقية للقلم هى أن يستطيع أن : « يقول ما يريد وقتما يريد أن يقول » . والرجولة الحقيقية هى أن يبذل المرء دمه وماله وراحته وهناءه ودعته واطمئنانه وأهله وعياله وكل أثير عنده وعزيز عليه فى سبيل شىء واحد : « الكرامة » والكرامة الحقيقية هى أن يضع الإنسان نفسه الأخير فى كفة ، وفكرته ورأيه فى كفة ، حتى إذا ما أرادت الظروف وزن ما فى الكفتين رجحت فى الحال كفة رأيه وفكره .. كل عظماء التاريخ كانوا كذلك . بل إن مصر الفقيرة اليوم فى العظماء قد عرفت ذات يوم رجالا كثيرين من هذا الطراز .. رجالا لم يترددوا فى تضحية كل شىء من أجل فكرة ... والنزول عن كل متاع من أجل رأى .. بمثل هؤلاء الرجال ربحت مصر كثيراً فى حياتها المعنوية والفكرية .. بل إنى لا أبالغ إذا قلت أن الأمم لا تبنى ولا تقوم إلا على أكتاف هؤلاء .. وأن الخطر المخيف هو يوم تخلو أمة من أمثال هؤلاء .. نعم وانه ليخالجنى الآن شىء من القلق ، .. فناموس اليوم هو وطء الفكرة بالاقدام ركضاً خلف الجاه الزائف والمال الزائل ، . لقد حق لنا جميعاً أن نسأل هذا السؤال : هل يطول غضب الله علينا فلا يظفرنا بهؤلاء العظماء الذين يستطيعون أن يردوا الاعتبار إلى قيمة الرأى ، ويطهروا النفوس من درن المادة ، ويعيدوا

المثل العليا النبيلة إلى مجدها القديم ؟

* * *

هذا قول قلته منذ أعوام ، وأقوله اليوم أيضاً . . وأنا واثق أن في مصر عدداً كبيراً من العقلاء الذين يستطيعون تمحيص المسائل وبحث المشكلات و إبداء الرأى الذى ينفع البلاد . . ولكنهم يطوون الرأى فى الصدور ، أو يهمسون به فى الآذان . ولا يعرضونه بجرأة ، أو ينادون به فى إيمان خشية أن يتعرضوا لهجوم ، أو يلحق مصالحهم ضرر موهوم . . هذا التنحى من الناضجين والاكتفاء عن المشاركة فى توجيه الرأى العام ، هو الذى يوجد فى مجال الآراء حالة تشبه الحكم المطلق أو الدكتاتورى . . إذ تستبد فكرة واحدة بعقول الناس ، ويطغى رأى واحد على تفكير الجماهير . . فتؤمن دون مناقشة بالقول الغالب ، و تنساق دون وعى بالرأى الجارف . . فنحن فى حقيقة الأمر الذين نفرض بأنفسنا على أنفسنا الحكم المطلق . . لا دستورنا ، ولا نظام الحكم لدينا . . نظامنا الديمقراطى لا يمنعنا من الحرية . . ولكننا نحن الذين ننزل عنها راضين ، لأننا لا نريد أن ندافع عنها أو ندفع ثمنها . . اننا نفضل دائماً أن نقبل رأى غيرنا الذى لا نؤمن به ، على أن ندفع فى سبيل رأينا بعض الجهد أو بعض الغرم . . مامن نظام فى الوجود يكفل الحرية

لإنسان يخشى أو يكسل أو يهمل فى إبداء رأيه الحر ! . .

* * *

إذا أردتم الحرية والكرامة الآدمية فافحصوا كل رأى بعقولكم ، ولا تقبلوا جزافاً وبغير تفكير آراء غيركم ، حتى ولو كان أصدق أصدقائكم . . .

إن الكاتب على مروءته محتقر ، لا لشىء إلا لأنه قبل بلا صعوبة أن يضع أصدقاؤه فى عنقه قيداً وإن كان من ذهب ! . .

من النيل الى السين — ١

قرأت رسالتك إلى على وجه « الأهرام » ذلك الوسيط الصادق بيني وبينك والرسول الأمين بيننا وبين الناس، نحمله ماشئنا وماشاءت أفئدتنا من آمال وأحلام ، بل هو ذلك الحمام الزاجل لهذا العصر نطلقه بين ضفتي نهرين ونافذتي قارتين

إني أكتب إليك الآن هذا الرد وأنا أطل على النيل ، وقد اتخذ لون الفضة في هذا الشتاء ، وأتخيلك الآن واقفاً تنظر إلى السين في لونه الفيروزي الصافي ، ماشياً الهويني تتصفح بين آن وآن الكتب القديمة المعروضة فوق حاجز النهر كما كان يفعل صديقك أناتول فرانس.

نعم إنك تثير في نفسي ذكريات . رسالتك قد أعادتني إلى ذلك الماضي . يوم كنت أقطع كل صباح ذلك الطريق بين كاتدرائية نوتردام حتى جسر « دورسيه » في الضفة الشرقية ، لا أترك كتابا حتى أتصفحه ، كان نصف تحصيلي العلم في أول أمري من تصفح الكتب خلسة بغير مقابل ، ألتقط من كل كتاب فكرة أو فكرتين كالعصفور يلتقط من كل سنبلة حبة أو حبتين، وأتحاشى أن تراني عين البائع المسكين وهو أيضاً فنان في أغلب الأحيان يهمه اقتناء النادر من المجلدات وبزهو بعرضها أكثر مما يهمه أمر بيعها . ولقد أضحكتني ذات مرة عبارة بارعة في كتاب مشهور كنت أتصفحه فباغتتني

نظرة البائع فخجلت أن أطرح الكتاب بعد ذلك ، فاضطررت إلى شرائه بالمال الذى ادخرته لغدائى .

نعم لقد كنا هناك نجمع أعقاب العلم من كل مكان كما يجمع فى مصر الغلمان أعقاب السجاير ، إلى أن اتسعت أذهاننا بالمران فصرنا نلتهم الأسفار التهاماً .

إن باريس عندنا لم تكن قط امرأة ، إنما كانت كتابا مفتوحا هو « سفر الحياة العليا » .

أما هنا . . فالنيل جميل حقاً ، لست أنكر ذلك ، وإنى لأرى الآن طرف (الجزيرة) الممتد فى الماء كأنه مقدم سفينة ، وأبصر فيها النخيل والأشجار خضراء داكنة كأنها ليل شعرى يخفى تحت ستره المحبين ، ولكنى لا أرى على ضفتى هذا النهر الرحيب العظيم غير قصور صغيرة متناثرة بيضاء وصفراء وخضراء كأنها بعض طيور الماء ، جمال طبيعى لاريب فيه ، ولكنك لاترى فيه بعد يد الحضارة النشطة . فلا حواجز ممتدة ولا تماثيل منصوبة ، ولا كتب معروضة .

أعترف لك أنى لا أقرأ فى مصر كثيراً ، وهل فى مصر بعد شىء يدفع إلى القراءة ؟ إن مصر ليست كتاباً مفتوحا ، إنما هى هيكل قديم مغلق يحوى كنوزاً ، قد ضاع مفتاحه فعلينا قبل كل شىء أن نفتح بابه ونستخرج مافيه ، ليس من الخير أن نظل طول الزمن نتغنى بمفاخر هذا الهيكل ونحن نائمون على أعتابه ، ولكن المصلحة كلها

فى أن نذكر أنفسنا دائماً بما فينا من كسل ونقص وخمول وأن نهب على أقدامنا للعمل .

وعلى ذكر العمل اريد أن أسألك سؤالا :

أما زال المقيم فى باريس يحس هذا الجو المعنوى المشبع بالنشاط الذى يغرى بالعمل المتواصل دون كلال ؟ لعل أهل مصر لايعرفون هذا الجو ، و إنك لتستطيع أن تخدم بلادك لو وصفته لنا فيما تصف ، هذا الجو الذى ينتشر فى كل مكان . فى القهوة حيث ترى الجالسين إما يكتبون وإما يقرأون وإما يتحدثون حديثا خافتا سريعا كله عزم ثم يتناولون قهوتهم السوداء فى جرعة أوجرعتين ويخرجون قافزين إلى الأتوبيس أو هابطين إلى المترو السفلى لينصرفوا إلى العمل ، فلا جلوس مستديم فى غير طائل كما نفعل فى مقاهينا نحملق بأبصارنا فى الرائحين والغادين ، ولا قهقهة عالية نصخب بها ونحن ننفخ دخان الشيشة ولا مناقشات مدوية فى العلاوة والترقية ، ولا صيحات العربدة ولا ضوضاء النرد .

نعم . أو ليست تلك كل حياة الملايين من المصريين فى أوقات فراغهم بعد عمل قليل لكسب اللقمة ؟ فهى بالقياس إلى ماتراه الآن حولك فى باريس لا يمكن أن تسمى حياة . فالحياة هى العمل واللهو ، ونحن لانعرف حتى كيف نلهو لأننا لانعرف كيف نعمل ، ولعل مصيبة العاملين فى مصر وهم ندرة أنهم لايعرفون أين ولا كيف يلهون

بعد نهار شاق ممتلىء بالانتاج ، فلا أوبريت فنية مصرية ، ولا مسارح تلتقى فيها شموس الهيئة الاجتماعية ، ولا صالونات لنساء عظيمات تتقابل فيها أساطين البلاد ، ولا أندية ليلة راقية يعرض فيها ظرفاء الأدب والشعر والفن كلماتهم اللامعة ونكاتهم البارعة وأخبارهم ونوادرهم وأغانيهم . لاشىء فى ليالينا المصرية يمكن أن ينم عن الروح المصرى والذوق المصرى ، بينما كل شىء فى الليالى الباريسية يدل على الروح الباريسى والذوق الباريسى .

إن الحياة بمعناها الرحب العظيم لم تدب بعد فى وادى النيل ، إنما تلك الحياة الصغرى التى لا تخرج عن شؤون الأكل والشرب والمتعة الوضيعة هى وحدها المعروفة الآن .

و بعد ، فانى أرجو لك إقامة طيبة فى محيط تلك الحياة الحقيقية التى أنت فيها الساعة ، وأرجو منك أن تحرص على كل دقيقة من دقائقها وأن تروى ظمأك بحسنها العلوى وتشبع نفسك بجمالها الروحى . وهنيئاً لك .

من رسالة إلى أحمد الصاوى محمد فى عام ١٩٢٧ .

من النيل إلى السين — ٢

جاء فى آخر رسالتك الماضية ذكر للأكل والشرب . وقلت بحق إننا حتى فى هذا أيضا لم نبلغ شأن الأمم المتمدينة ، صدقت والله صدقت . إن الحضارة . كل شىء فيها موضوع تفنن وابتكار . إن الرجل المتحضر هو الذى يعرف كيف يعمل وكيف يأكل يلهو وكيف . وما من أدب من الآداب العريقة إلا وفيه فصل عن الطعام ، فاذا فتحت « العقد الفريد » لابن عبد ربه أو « مقامات بديع الزمان » وجدت أوصافاً تسيل اللعاب فى ألوان « السكباجة » و « الطهباجة » وإذا راجعت كتاب « بول ريبو » الأديب الفرنسى عن فن الأكل لوجدت فيه هذه العبارة الطريفة : « إن استكشاف لون جديد من ألوان الطعام لأنفع للانسانيه من استكشاف نجم جديد من نجوم السماء » وإنك لتعلم فيما تعلم عنى أنى أحب الجيد من الطعام ، وإنى كثير التبديل والتغيير للطهاة فبحقى عندك إلا أكلت لى وباسمى ثلاثة أزواج من « المحار البرتقالى الأخضر » وطبقا من « الكاسوليه » التولوزية التى أحبها ؟ ولا أوصيك بحساء البصل فأنت أدرى منى أين تجده وتطلبه . وبعد ! أما وقد فرغنا من أمر بطوننا فلنتجه إلى شئون عقولنا . لقد راقنى حقا وصفك للاضراب العام فى باريس وقولك إن تعطيل طرق المواصلات من ترام ومترو وأتوبيس فى بلد

كباريس لم يعطل لحظة نشاط الباريسيين . هذا صحيح إن ضرب باريس نفسها بمدافع الألمان أيام الحرب لم يؤثر لحظة فى حياتها العقلية والذهنية والاجتماعية . فقد كان رجال العلم فى معاملهم وقاعات بحثهم هم هم ، ينظرون إلى عالمهم اللانهائى من خلال المكرسكوب والتلسكوب ورجال الأدب هم هم يستقبلون تحت قباب المجامع الأدبية زملاءهم بذلك النثر الذى سيبقى على التاريخ . ورجال الفن هم هم يعرضون نتائج ابتكارهم واتجاهات مذاهبهم فى المعارض والصالونات ، والمسارح هى هى تعج بالمشاهدين والناقدين . . وأندية الليل هى هى بظرفها وشعرها وخفة روحها . .

أما فى مصر ، فكل هذا غير معروف . فانه ليكفى أن تنشر جريدة فى صفحتها الأولى أو التاسعة خبراً سياسيا هاما حتى تجد مصر كلها من أقصاها إلى أقصاها لا تتكلم إلا فى هذا الخبر ولا تقلق إلا بترديد هذا الخبر ، السبب فى ذلك بسيط : إن حياتنا فوضى ، أو هى حياة أولية «سديمية» لم تتكون فيها عوالم منظمة متآلفة يعيش فيها الناس . فانك لا تستطيع مثلا أن تقول فى مصر «عالم الأدب» و «عالم العلم» و «عالم الرياضة» و «عالم الفن» و «عالم السياسة» الخ الخ . بالمعنى المفهوم لهذه العوالم فى أوربا . فان كل طائفة من هذه الطوائف عندنا لم تستطع حتى الآن أن تنظم نفسها تنظيما يؤهلها لحصر جهودها المنتجة فى منطقة معينة بالذات . وقد نشأ عن ذلك أن الطائفة التى فى يدها القوة واللقمة وهم

رجال السياسة ، قد برز عالمهم كالشمس فطغى على الآخرين ، ومحى من الوجود تلك العوالم الأخرى النافعة التى كان ينبغى ألا تقل عنها إشراقا . فنحن إذن لا نعيش كما تعيش الأمم الكبرى ، ومجتمعنا على وضعه الحاضر مجتمع ابتدائى . فالى أن يهتم الناس بأشياء أخرى غير السياسة وأرقى من السياسة ، وكل شىء فى الوجود هو فى الحقيقة أرقى من السياسة إلى أن يعنى الناس بشؤون الفكر ولذات الفكر و ينفقون فى الكتب والمتاحف والمعارض وقاعات المحاضرات بعض اللحظات . إلى أن يكون لرجل العلم ورجل الأدب ورجل الفن فى مجتمعنا عين الإحترام والاهتمام الذى يقابل به رجل السياسة ، إلى أن تكون للمظاهرات الأدبية والعلمية عين الهزة : والضجة التى تكون للمظاهرات السياسية إلى أن نترك هؤلاء البضعة القليلة من السياسيين المحترفين يصيحون و يصخبون فى نواديهم ! . وننصرف نحن المفكرين إلى نوادينا ومجامعنا الفكريه ونحن الرياضيين إلى نوادينا الرياضية ونحن الماليين والاقتصاديين إلى نوادينا الماليه والتجارية . إلى أن تتعدد نواحى النشاط فى البلد . و يذهب هذا النوم والخمول الذى شمل كل جانب إلا ذلك الجانب العقيم : السياسة . إلى أن يحدث كل هذا فلا أمل فى المجتمع المصرى . فلندع الله أن يتدارك هذه الأمة برحمته فهو مغير الأحوال والسلام ! !

من رسالة إلى أحمد الصاوي محمد عام ١٩٣٧

من مشكلات الفكر

أثارت صحيفة انجليزية مشكلة ليست يسيرة الحل . . وهي فيما يبدو من الظواهر الشائعة اليوم في كثير من الأمم . . . تلك هي مشكلة الأدباء والمؤلفين وموارد رزقهم . . فلقد كادت تنقرض الآن اسطورة المؤلف الثرى . . . ذلك أن أزمة الورق في انجلترا ومشاكل النقد وقيود الاستيراد الدولية انقصت الى حد كبير عدد المطبوع من الكتاب ، فلم يعد ربحه يكفي لاطعام المؤلف . . وليس كل مؤلف يستطيع فوق ذلك أن يضمن لكتابه للنشر ، حتى وان كان من المجيدين أو المعروفين . . فان للناشرين حصة محدودة من الورق ، وعلى كل منهم ان يعد قائمة بمؤلفيه، ويعين لكل نوبته في اسبقية الطبع . . أمام كل هذه العقبات ماذا يصنع المؤلف لينتج ويعيش ؟ . . استطلعت الصحيفة آراء طائفة من الأدباء . . فأجمعوا رأيهم على أن تأليف الكتب لم يعد يضمن رزقا لمؤلف . . وان على الاديب أن يتخذ له حرفة من الحرف أو وظيفة من الوظائف أو عملا باحدى الصحف . .

إنها حقا لمحنة أن يعجز الفكر الصرف عن أن يكفل لصاحبه حياة مستقلة في هذا العصر ! . . ولكن ما هو الحل ؟ . .

. . في فرنسا تكفلت الحكومة عقب الحرب الاخيرة بشراء بعض مقالات الادباء ، لتقيهم شر الموت جوعا وجعلت توزع هذه المقالات

على الصحف ، داخل بلادها وخارجها قاصدة من وراء ذلك الى نشر الدعايه للثقافة الفرنسية . . ولـكن هذا ليس بالحل الطبيعى الذى تلجأ اليه حكومة فى كل حين . .

أما فى بلادنا فالمشكلة قائمة على أشدها . فالحكومة أبعد من أن تعنى بتأليف أو مولفين - . ومع أن عدد الأدباء المنقطعين لحرفة القلم قليل . . إلا أنهم قد تركوا لمصائرهم يدبرون لأنفسهم أمر معاشهم . ولما كانوا لا يحسنون عملا غير حمل القلم . . فقد احترفوا الـكتابة على كره منهم . .

ترى ماذا يحدث لو التفتت اليهم الحكومة قائلة : « يجب ان تنقطعـوا للفـكر الصرف كل الانقطـاع . . أما معـاشكم فانى سأدبره لـكم . . . »

إذا فعلت الحـكومة ذلك ثم اقتضت من الأدباء بعدئذ الثمن . . وارادت تسخيرهم فى خدمة أهدافها السياسية أو اهوائها الحزبية . . فان الحال تنقلب شرا مما كان . . . والخير للاديب أن يموت جوعا من أن يبيع روحه لشيطان السلطان . . . ولـكن . . لنفرض أنه وجدت الحكومة التى تترفع عن هـذا الصغار . ولنفرض أيضا أكثر من ذلك أنها تورعت عن التدخل فى إنتاج الأديب وأنها جردت من سلطانهـا حارسا يحمى حرية الأديب فى التفكير والابداع . .

لنفرض أن هـذه الحكومـة أو (العنقـاء) يمكن أن

توجد . فماذا يكون الحال ؟ . .

ما من شك الأدباء سيتوفرون على الفكر الخالص وحده . . وسيكرسون جهودهم لخدمة الفن الرفيع ، بعيدا عن كل اعتبار . . وسيحلقون في أدبهم وفنهم وتفكيرهم تحليقا . قل من يتابعهم فيه أو يلاحقهم في التصعيد الى قممه .

إنه الفكر المستكفي بذاته قد أمتطى صهوة السحب . . ليشرف من سمائه على جموع الناس . . .

* * *

على هذا الوضع يخيل الينا أن المسألة قد حلت . . . ولكن صوتا من أعماق الجموع يرتفع قائلا : أنسيتم أنكم فى عصر (الجماعات) البشرية المتيقظة التى أصبحت لها حقوق فى كل زاد مادى ومعنوى ؟ ! بأى حق تحبسون عنها هؤلاء الادباء فى تلك الاقفاص المرتفعة . . وتدثرونهم بهذه السحب القصية ؟ ! لماذا تحرموننا نحن الشعب من هذا الاتصال المباشر بهذه العقول الممتازة؟ ! نحن الناس فى جموعها والوفها لاتصل أيدينا الفارغة الفقيرة الا إلى الصحف السيارة والمجلات المنتشرة . . أتريدون أن نقرأ فيها الفارغ الفقير من الكلام فى فى كل الاحوال . . أليس من حقنا أن نلقى فيها أديبا من هؤلاء الأدباء الذين تريدون أن تجعلوهم وقفا على الخاصة ؟ ! . الى متى هذه النظرة الارستقراطية القديمة الينا ؟ ! أن العالم قد تغير .

وأن الأديب الذى ينكرنا . . ويأبى أن ينفعنا وأن يمد يده إلينا . . ولو فى أعماق طيننا وفى حماة وحلنا وفى وصمة جهلنا . . لهو أديب مترف بغيض . بل هو كمدعى النبوة المترفع الـكاذب الذى يخشى على ثيابه أن تدنسها أوساخ الطريق . . وعلى سمعته أن تلطخها خطايا الفجرة . . فلا يهبط من مقصورته العالية لينتشل من الجماهير ولو نسمة واحدة صالحة للهداية أو الرقى ! . . . »

*
* *

بين هذين الصورتين ماذا يصنع الأديب ؟ . . و إلى أيهما يتجه ؟ إلى الفن الخالص الذى يناديه من أعلى . أو إلى الجوع العطشى التى تناديه من أسفل ؟ ! أو يظل معلقا كالقرد . . يد فى العـلو ويد فى السفل ؟ ! . .

مشكلة أخرى لابد لها من حل ! .

بين جيلين !

جاءنى ذات صباح أديب شاب . . وقدم إلى رواية مصرية ألفها ونشرها فى كتاب . . وهو مزهو فخور منتعش ، كشجرة اتت ثمارها فحملت كتابه فى يدى بعناية وحنان . . أقرأ العنوان . . ثم شرعت أقلب بعض الصفحات . . واذا حركة بالباب تبلغ أذنى . . فرفعت عينى . . فوجدت فتاة لطيفة المظهر أنيقة الملبس . . مشرقة الوجه . . وضاحة الجبين . . تستأذن وتدخل وتجلس . . قبل أن تمنحنى وقتا لرد أو جواب . . ولم تنتظر منى كلاما . . فقد انطلقت هى تقول بلسان فصيح وجنان ثابت :

— إنى قارئه ساخطة ثائرة . . جئت أوجه إليك سؤالا واحدا . ماذا تصنع الآن ؟ . . مضى العام تلو العام دون أن يظهر لك كتاب فى السوق . . أهى الصحافة التى شغلتك ؟ . .

وأشارت بيدها إلى جو الحياة الصاخبة الذى يحيط بمكتبى . .

* * *

والتفت اليها لأجيب . . ولكن الشاب سبقنى صائحا بحماسة :

— أمن الضرورى أن يؤلف هو وينشر ؟ . . أليس فى الدنيا كتب أخرى جديرة بالقراءة تظهر فى كل حين ؟ ! .

فنظرت إليه الفتاة دهشة . . ثم نقلت بصرها إلى كالمتسائلة . .

فوجدتني أهز رأسى موافقا مصادقا مؤمناً . . فعادت إلى الشاب قائلة :

— إنى أسأله هو عما . . يشغله ؟ ! .

فقال الشاب بقوة وتدفق :

— مالنا وماله ! فليشغل نفسه بأى شيء . . خيراً من أن يملأ مائتين أو ثلاثمائة صفحة يجملها قصة يتقدم بها فى كل موسم . . حتى يقال أنه دائب على الانتاج . . ما كان أسهل عليه أن يكرر نفسه . . ويخرج حلقات لاتنتهى على نمط « عودة الروح » أو « عصفور من الشرق » أو « الرباط المقدس » أو المسرحيات الاجتماعية والذهنية أو يستغل على الأقل كتب التاريخ ، يستخرج منها قصصا لاتنفد وينشر فى كل موسم ماتشائين ويشاء أمثالك . لمجرد النشر أو الكسب أو إثبات الوجود أو إظهار النشاط ! . .

— أتراه يستنكف من فعل ذلك ؟ . أولا يرى له جدوى ؟ ! .

— اطرحى عليه هذا السؤال . . ها هو ذا أمامك ؟ !

* * *

فالتفتت الى الفتاة لحظة . . ثم انصرفت عنى يائسة إلى الشاب .

— إنه يهز رأسه دائما . . أجب أنت .

— ولماذا أجيب عنه ؟ . . ولماذا تصرين على الكلام فى شأنه إذا أردت فانى أحدثك عن نفسي . . فأنا ولا شك ملم بكل تفاصيلها وأنا أديب ومؤلف وروائى و . .

— عجبا .. ولكنى لم أجىء لأتحدث إليك !

— هذا خطأ منك .. أيتها الآنسة .. لو كنت فى مكانك لسألت توا عمن يكون هذا الشاب الموهوب الذى تدخل فى الحديث بهذه الشجاعة .. وطلبت أن يقدم إلى .. وأن يحدثنى عن كتابه الذى ظهر حديثا .. لأطمئن على أن الأدب بخير .. سواء ألف صاحب هذه الحجرة أو لم يؤلف .. ونشر كتبا أولم ينشر .. وعاش أو لم يعش ..

— أنها حقا لشجاعة .. بل جرأة .. انك تتدخل على نحو ..

— لاتنظرى إلى « صاحب الحجرة » !.. إنه لن ينقذك منى ولن يتكلم .. ولن يبت برأى .. إنه كما ترين يجيبك دائما بهز رأسه !..

— هذا صحيح .. وأنت هل تعرفه منذ زمن طويل .؟

— أعرفه منذ خمس عشرة سنة .. كنت يومئذ فى الخامسة عشرة ، وكان أهلى فى البيت يتحدثون عن « عودة الروح » ولكنى لم أحفل بقراءتها شخصيا إلا عند مابلغت العشرين .. فى ذلك الوقت نشأت مع كثيرين من أقرانى فى الجامعة وشباب جيلى وشببت معهم وهم يغلطون ويتناقشون فى الرواية المصرية الطويلة التى شق طريقها .. ويقسمون بحماسة الصبا انهم سوف يمضون فى هذا السبيل ويخرجون يوما روايات مثلها وخيرا منها عن حياتنا القومية وقد بر

بعضهم بوعده ونشر قصصا على جانب كبير من الطرافة والاتقان ..
واستطيع أن اؤكد لك أيتها الآنسة .. أنى أحد هؤلاء النابغين ..
أقولها لك بكل صراحة .. وبكل تواضع ..

— إنى متأكدة من صراحتك وتواضعك .. وعلى الرغم من كل شىء .. ثق أنى بدأت أهتم بأعمالك . ولكن .. ألا تسمح لى قبل ذلك أن أعرف شيئا قليلا عن الأمر الذى جئت اليوم من أجله؟ ! .

— تفضلى ! .. ماذا تريدين أن تعرفى ؟ ..

— السؤال بالطبع ليس موجها إليك .. أردت أن أعرف كيف يترك فنه العالى لينزل إلى الكتابة فى الصحف ؟

— والله لقد حيرتموه ! .. إذا ارتفع بفنه قلتم كيف لا يهبط إلى الناس : يشعر بشعورهم ويدرس أحوالهم ويعرف أنباءهم ويعرض شكاواهم ويدافع عن حقوقهم فاذا فعل .. عدتم فقلتم أين العزلة التى يكتب فيها لطائفة من الخاصة . نصيحتى لك أيتها الآنسة أن لا تلقى هذه الاسئلة السخيفة .. لا تؤاخذينى . ان من يكتب لمئات الألوف ويستطيع أن ينفعهم بعض النفع ويرتفع بهم بعض الارتفاع لهو رجل يؤدى خدمة عامة ..

— وفنه ؟ !

— .. ما من فنان يستطيع أن يهمل فنه وإن أراد ... ولعلك تخلطين بين الفن و بين إنتاج الكتب فى كل موسم ! تخلطين بين

الفنان والمعلم وبين المنتج والتاجر ! . . ماذا تسمين ذلك الذى يسكت عند ما ينبغى له السكوت . . عامين أو ثلاثة أو خمسة أو عشرة . . يدرس خلالها نفسه من جديد ، ويزن تأملاته ، ويختزن تجاريبه . . ويراقب أحوال الناس وتطورات المجتمع . . ويراجع أعمالنا القديمة . . ويبحث ، صامتا صابرا ، عن طرائق للتعبير الفنى جديدة . . ان النشر يا آنستى سهل . . ولكن الصعب هو البحث الطويل فى الظلام ! . لعلك تجدينه الساعة مشغولا بالبحث عن نوع من الفن لا علاقة له بكل ما عالج من قبل . . « الفن طويل والحياة قصيرة » ! تلك كلمة « جوته » المشهورة . .

ان من يريد أن يمسك بتلابيب « الفن » . . فى حياته المحدودة يجب أن يقفز فوق كل تكرار لا غناء فيه . وأن يركض خلف سرابه فى كل طريق حتى القبر . .

* * *

وسكت الفتى . ونظر إلى كأنه يسائلنى : هل أصبت ؟ فتلقى منى الجواب هزة من الرأس أيضاً . . أما الفتاة فقد أكبرت كلام الشاب الأديب وقالت :

— اسمح لى أن أبدى إعجابى بفهمك للفن . . وأن أسألك عن كتابك . . فانى مشوقة إلى قراءته . . فى أى المكتبات أجده ؟

— آسف كل الأسف يا آنسة إنى لم أجىء هنا إلا بنسخة

واحدة . . ولكن إذا أذنت فانى أرافقك الآن إلى أقرب مكتبة . .
وأقدم لك نسخة ممضاة . . الديك ما يبقيك هنا الساعة ؟! .

لا داعى لبقائى . . نستطيع أن نذهب تواً . .

ونهضت فى الحال وحيتنى تحية سريعة . . وانصرفت . . ونهض الشاب لينصرف فى أثرها بعد أن حيانى هو الآخر تحية سريعة . .
ولم يكد يبلغ العتبة حتى بدا له رأى . . فعاد أدراجه إلى واقترب منى هامساً راجياً .

-- المكتبات الآن مغلقة.. أكون شاكراً لو تفضلت ورددت إلى هذه النسخة لأهديها إليها . . أما أنت فسأحضر لك نسختك غداً . . إن المستقبل أولى من الماضى ! . .

فما تمالكت أن مددت يدى إليه بالنسخة . وأنا أغمز له بعينى راضيا باسما :

— صدقت ! وإنى لأراه مستقبلا مشرق الوجه وضاح الجبين ! .

في السياسة والاجتماع

هستريا السياسة

أتسمع هذه الضوضاء التي ارتفع صداها إلى أبراجنا العاجية فأفسدت علينا هدوءنا وتفكيرنا . لعلك قائل معي هي « هستريا السياسة » أصيب بها هذا البلد دفعة واحدة . نعم . الأمر لا شك خطير ما دام قد استطاع أن يصل خبره إلينا فيؤثر في أعصابنا وإنتاجنا نحن المعتصمين في أبراج الفكر الهادىء وإذا وصل بخار « السياسة » إلى تلك القمم الباردة في أمة من الأمم فأنذر إذن بالويل وتنبأ بأن رأس الأمة قد لعب به الداء . . . فما رأس الأمة في حقيقة الأمر إلا مفكروها المجردون . وإنك لتذكر ما كان من أمر « جوته » شاعر الألمان يوم زلزلت الدنيا بثورة يوليو الفرنسية ! فقد دخل عليه صديقه الأديب « اكرمان » يزوره ويتحدث إليه ، فبادره جوته صائحاً : « لقد أرسل البركان حممه واشتعلت النار في كل شيء » فقال اكرمان : « نعم إنه لحدث جلل هذه الثورة الفرنسية » فعجب جوته وقال ساخراً : « كلا . لست أعني تلك الثورة إنما أتكلم عن تلك المساجلة العلمية

التى نشبت فى موضوع « أصل الأنواع » بين العالمين « كوفييه » و « جفرى سانت هيلير » تحت قبة المجمع العلمى ».

هنا أيها الصديق كل مجد ألمانيا فى الماضى بل كل مجد البشرية العليا . إن رعد الثورة وصياح الثوار لم يبلغ صداه أبراج العلم وقمم الفكر . هذا الرأس قد ظل ثابتاً ، لم تلعب به « السياسة » ، هادئاً لا يتأثر بانقلاب أو فتح أو حرب إلا ما وقع فى ميدان العلم والفكر . ولقد انطفأ فعلا لهب الثورة الفرنسية ومضى بدخانه ورماد أشلائه وبقى رأس « جوته » شامخاً مضيئاً فى عليائه ، رمزاً للفكر الإنسانى الخالد .

ينبغى أن نتدبر قليلا هذا البلاء ، خوفا على رؤوسنا أن يصيبها دوار « السياسة » فلا تبصر شيئاً فى هذا الضباب الشامل ، وخشية على الناس أن يتمكن منهم الداء ، فيذهب بألبابهم ويدفعهم إلى التقاتل والتناحر ويغرى الشبان منهم باقتراف الإثم وارتكاب الجريمة ، ويشغل المنتجين منهم عن الإنتاج ويصرف الأمة قاطبة عن العمل المفيد ويوقف تلك النهضة التى كادت تعود إلى هجعة مضطربة تحت أقدام كابوس .

إنا لا نستطيع أن نصيح فى الناس ، وإذا صحنا من هذا العلو فما صيحاتنا إلا همسات تمر فوق بحر من العراك

والصياح والهتاف تعج به وتصخب أمة بأسرها ، هل لك فى أن تنادى معى من برجك : أيها الناس اتركوا السياسة للساسة ، فانهم ليسوا فى حاجة إلى حناجركم ولكنهم فى حاجة إلى هدوئكم وانصرافكم إلى أعمالكم !

من مساجلات مع منصور فهمى عام ١٩٣٧

جموح الديموقراطية

ما تقول هو الواقع . إن تفشى المادية وجموح الديموقراطية لمن أظهر الأمراض الاجتماعية اليوم . ولعل الأولى نتيجة الثانية . فقد فهمت الديموقراطية فهما غريبا . فهى اليوم مطية ذلول لمن يريد سرعة الوصول . ولقد تزاحم الناس فعلا على ركوبها فجمحت بهم وانطلقت تهدم الأخلاق وتحطم المثل العليا . إنك لن تجد اليوم كثيرا من طراز أولئك الرجال الذين عاشوا متعففين لا مطمع لهم غير تلبية نداء الحق والواجب فى صوت جهير وخلوص ضمير . لقد مضى ذلك الزمن الذى كان يجلس فيه العالم قابعا فى أطماره يلقى الحكمة على سامعيه ويجرى عليه الخير ليعيش ، ثم يموت ولم تعرف يده ثقل الجنيهات . فقد كفاها أن عرفت ثقل القبلات يضعها عليها رجال الحكم والسلطان. مضى ذلك الزمن الذى كنا نرى فيه الجاه والمال عاجزين عن انتزاع الطبيب من واجبه الانسانى ، والقاضى من عدله المنزه ورجل الفقه من فتاواه المجردة ، والأستاذ من بين تلاميذه ودرسه ورجل الدين من بين تابعيه وزهده . الآن نستطيع بترقية أو بعلاوة لا تعدو جنيهات أن نلعب بلب أكثر هؤلاء وأن نصرفهم عن ميادين نشاطهم الطبيعى وأن نغريهم بمناصب لا صلة لها بعملهم ولا بفضلهم ، وهذا ما يحدث كل يوم فقد ماتت المثل العليا . وهذا ما أقفر دور العلم والفكر ودور

الدين والزهد ودور العدل والفقه ودور الفن والأدب من أربابها وزج بهم إلى التطاحن والتسابق فى ميادين المادة والوصول . هنا أيها الصديق كل الخطر فان تفشى المادية والوصولية فى جسم الأمة لا يخيفنى بقدر ما يخيفنى دنو الداء من رأس الأمة ، أى خاصتها وقادة الرأى فيها ، إن هذا الرأس هو المحتاج الآن إلى العلاج . ولكن كيف؟ ماهى تلك العملية الجراحية التى تخرج من هذا الرأس صديد المادية وتطهره بماء القناعة والروحانية ؟ كيف نستطيع أن نذكر الناس اليوم أن أقوى إمبراطورية على الأرض وقفت ذات يوم وخلفها أساطيل البحر والجو مكتوفة اليدين حائرة أمام رجل هندى خلفه عنزة ثق أن فى الامكان صنع الأعاجيب لو استطعنا أن نعيد إلى الخاصة حسن ظنهم (بالأخلاق) وصدق تقديرهم (المثل العليا) . ينبغى أن يؤمن الناس بألا أحد أعظم ولا أقوى من الرجل الذى لا يشترى بمال ولا بجاه ، نعم إن من ملك قلباً حاراً ولساناً حراً ولم يكن له فى زينة الحياة مطمع فهو وحده الذى يستطيع أن يسود العالم . ألا ترى معى أن (المثل العليا) المحطمة فى حاجة إلى أن توضع من جديد شامخة فوق عروشها الرخامية الجميلة . ! !

من مساجلات مع منصور فهمى عام ١٩٣٧

الإيمان بالمثل العليا

تسألني عن أقرب الأسباب لإعادة حسن الظن بالأخلاق، وتقوية الايمان بالمثل العليا. هذا كل المسألة. ولست أدرى من يبدأ بالعمل ومن يعطى المثل. أهم الأفراد أم هم أصحاب السلطان ؟ ولقد ذكرت عمر بن الخطاب و زهده فى متع الدنيا وفى يده مفاتيح الكنوز وتحت قدميه دول وعروش . هذا حقيقة خير مثل لصاحب السلطان ينبغى أن يضرب للأفراد والمحكومين كى يقتدوا به و يؤمنوا بأن العظمة الحقيقة لا تعرف الحرص على المادة. ولكن الدرس والمثل قد يأتى أيضاً من الفرد المحكوم وما إخالك تنسى موقف ذلك العالم الفاضل الشيخ الطويل يوم دعاه الخديو فأبى إلا أن يذهب إليه بعباءته البالية الممزقة التى عليه فلما ألح عليه الناصحون أن يرتدى عباءة جديدة صاح فيهم : أهو يريد رؤيتى أنا أم رؤية العباءة، إن أراد العباءة فها هى ذى احملوها إليه و إن أرادنى أنا فانى أذهب إليه كما أنا وما إخالك تنسى كذلك موقف علماء الأزهر يوم دعاهم نابليون الظافر وأراد أن يزين صدورهم بالنياشين ، فراعه أن رأى أيديهم الغاضبة قد انتزعت نياشينه وألقت بها إلى الأرض فى حضرته ، فلم يغضب وابتسم وعلم أنه أمام رجال يحترمون أنفسهم . وهو أول من يدرك أن الانتصارات والجيوش لا قوة لها ولا حيلة أمام رجل يحترم نفسه.

فأنت ترى معى أن الدرس الخلقى قد يأتى من صاحب السلطان كما يأتى من الفرد المحكوم . . . المهم فى الأمر أن يوجد المثل الحى للأخلاق الحرة النزيهة العظيمة فى أى طبقة وأى بيئة وأى زمان .

وأعود فأجيب على سؤالك الآن فى غير تردد أن أقرب السبيل إلى إعادة حسن الظن بالأخلاق والمثل العليا هو وجود المثل بالفعل . هو ظهور رجل واحد ومثل واحد حى نراه بأعيننا ونسمع صوته بآذاننا ونلمسه بأيدينا ونتبعه بأفئدتنا . ولكن . . . هل كل مجتمع قدير على إخراج مثل هؤلاء الرجال أو أن أولئك لا يظهرون إلا فى مجتمع يهيئهم للظهور ؟

من مساجلات مع منصور فهمى عام ١٩٣٧

داء الكلام

هنالك أمر آخر يدعو إلى قلقى على مستقبل نهضتنا . إن أول شىء يحزننى حقيقة وأرجو أن يكون قد استرعى نظرك على الأقل هو أن « الكلام » له عندنا دائماً كل القيمة ، أما (العمل) فلا يسأل أحد عنه . إن (الشكل) هو الذى يعنينا ويخلب منا اللب . أما (الجوهر) فلا نكاد نلتفت إليه . إن (الوسيلة) تنقلب عندنا دائماً إلى (غاية) لعلك قرأت فى كتابى (يوميات نائب فى الأرياف) كيف يهتم رجال الضبط أحياناً بتنميق تحرير المحاضر وملء القسائم أكثر من اهتمامهم بالقبض الفعلى على الجناة . ولعلك رأيت فى محيط حياتنا العام كيف أن عشرين عاماً قد مضت على مصر ونحن لا عمل لنا إلا الصياح بملء أفواهنا هاتفين بكلمات الحريه والاستقلال. ولقد نبذنا كل شىء ، وتركنا كل عمل من أعمال النهضة الحقيقية وجلسنا نتقاذف أقوالا ونرذذ كلمات . إلى أن شاء القدر آخر الأمر أن ينقذنا من هذا التكاسل والقعود فقال : (هاكم الاستقلال) فقلنا : (هات) ثم أخذنا هذه الكلمة وجلسنا كما كنا لا ندرى ماذا نصنع بها . نحن نقع دائماً فى الحيرة كلما تركتنا الظروف وجهاً لوجه أمام العمل المنتج ، وكأننا لا نجد فرجاً ولا مخرجاً إلا فى الصياح والجدل . إنى لأخشى أن تظهر فى الأفق كلمات أخرى أو أن

نخترع موضوعاً جديداً للتصايح يشغلنا من جديد عن المضى الجدى فى حركة النهوض المنشود . آه . العلة كلها ها هنا : إن روح العمل وعبقرية الخلق ثمار لم تلق بعد بذورها فى أرض مصر ! حاجتنا شديدة إلى هذا الصنف من رجال العمل الذين لا يصرفهم عن الخلق والبناء شىء فى الوجود . إنك ولا ريب تذكر نابليون فى غزوته لروسيا ، وكيف خذله البرد والجليد ، غير أنى أريد منك أن تذكر ماذا فعل هذا الرجل عندما وحد نفسه محصوراً فى تلك الأصقاع لا يدرى ماذا يفعل . أستغفر الله . إن الرجل العظيم يعرف دائماً ماذا يصنع ولا يطيق مطلقا أن يقعد دون أن يخلق شيئاً . فهو لم ينفق وقته فى صياح ولم ينتظر الغد مستلقياً على ظهره ، ولكنه شمر فى الحال عن ساعديه للعمل وجعل وهو فى كربه وضيقه يفكر فى إصلاح بلاده ، ويضع بالفعل وهو بعيد عنها ، الأسس اللازمة لتنظيم الحركة الفكرية والاجتماعية فيها : وكان من بين تلك المنشآت مشروع الكوميدى فرانسيز إحدى منائر الثقافة الفرنسيه فى العالم ، وكذلك فعل هذا الرجل فى مصر يوم حطم خصومه أسطوله وقطعوا صلته بوطنه ، فلم يضعف عزمه ولم تفتر روح العمل فيه وقال . (لم أصنع فى مصر حضارة أخرى ؟) وشرع من فوره يبنى دعائم

المعاهد العلمية ويضع أحجار النظام والاستقرار لطرائق الحكم وأسباب العمران . ولكن : من المسئول عن موت روح العمل المنتج فى هذه الأمة ؟ أهم رؤوسها الذين عودوها سياسة الكلام ؟ أم هى الأمة نفسها التى لا تحب ولا تحتمل بعد غير هذا الصنف من الطعام ؟ ! ! .

من مساجلات مع منصور فهمى عام ١٩٣٧

البرنامج اولا

مادمنا قد اتفقنا على أن « العمل » قد حان له أن يحل محل « الكلام » وما دمت ياصديق قد طلبت إلىّ أن أمضى فى ذكر التفاصيل . فأنى أقول لك إن أول ماينبغى عمله هو وضع « البرنامج » وقد ترد على بأن « البرامج » هى أيضاً مما يدخل فى منطقة (الكلام) ولكن ما الحيلة إذا كانت حتى هذه الخطوة الأولى فى سبيل العمل لم نخطها بعد . إن كل النهضات التى قامت بها الحكومات الحديثة فى بلادها خصوصاً بعد الحرب قد تمت وفق منهج مرسوم وتحدد لتنفيذها زمن معلوم . فقالوا : هذا (نظام خمسى) وهذا (نظام عشرى) تبعاً لعدد السنوات التى قرر الإخصائيون أنها لازمة لظهور المشروعات فأين نحن من هذا ؟ أتستطيع مثلا أن تقول لى هل وضع نظام ثابت لمحو الأمية من البلاد فى ظرف سنوات معلومة كما فعلت العراق ، حتى نرتب على هذا الحدث نتائج اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية نواجه بها هذه النهضة القادمة ؟ أيمكنك أن تقول لى هل هنالك مشروعات اقتصادية درسها الخبراء وقرروا لها زمناً تتم فيه وتخرج للبلاد فى نهايته وسيلة جديدة من وسائل الانتاج تزيد الثروة الأهلية الزيادة التى تتعادل مع نمو عدد السكان وتسد الحاجات المنتظرة والمطالب المستقبلة ؟ أو أننا سنظل دائماً كما نحن وكما كنا منذ أن أدخل الخديوى اسماعيل

فى مصر زراعتى القطن والسكر لا نفكر فى مصدر جديد للثروة ينفعنا فى الغد ؟ ؟ وهل فى مقدورك أن تقول لى هل درس الباحثون سياسة ثابتة للتعليم الجامعى وخطة واضحة لتوجيه الثقافة العامة فى نهضتنا ؟ وإلى أى مدى ننحو نحو الحضارات القائمة أو أننا سنبقى حيارى فى حدائق المعرفة لا ندرى ماذا نأخذ وماذا ندع ! فأنت ترى إنه لم يوضع شىء بعد — حتى على الورق — لتحديد العمل والزمن الذى يقتضيه التنفيذ لمختلف فروع نهضتنا ، بل إنه لم ينظر إلى الآن حتى فيما يجب البدء به حالا من هذه المرافق المختلفة تبعاً لحاجة البلاد حتى لا يضيع علينا الوقت فهل أنت مازلت من المتفائلين ؟ !

من مساجلات مع منصور فهمى عام ١٩٣٧

فساد الدولاب

حتى على فرض فراغنا من رسم الخطط ووضع البرامج ، فالباقى بعد ذلك كثير ، بل إن مجرد السير الآن فى طريق العمل عسير . إذ بمن نعمل ؟ إن الأيدى العاملة قد لحقها الفساد ، فهى مثل تروس الساعة المختلة تدور فى غير حدود ، فيد الوزير أحيانا تمتد إلى الأنظمة والأوضاع تقلبها رأسا على عقب دون أن تصغى إلى كلام أصحاب الاختصاص من المرؤوسين ، وإن الموظف مهما يكبر ومهما ينبغ لا يعدو أن يكون تابعاً يتلقى أمر رئيسه ويؤمن على رغباته وإن علم أن فيها الضرر لمصلحة البلاد . وهكذا أهدرت الشجاعة الأدبية . وجبنت النفوس عن تحمل المسؤولية . بل إنه ليحدث أكثر من ذلك . فإن المسألة الفنية لتعرض أحيانا على لجان من الاخصائيين يبحثونها فى شهور . فيأتى وزير يضرب بنتيجة البحث الطويل عرض الحائط ويؤشر بقلمه الأحمر مناقضاً ماجاءت به اللجنة ، كأنما هو يتحدى تلك العقول ليظهر أن رأيه « المرتجل » لساعته خير وأحكم من آراء المختصين بعد درس شهور . ولكن الأدهى والأمر أنه يجد فى أكثر الأحيان من بين موظفى وزارته ومن بين هؤلاء الإخصائيين أنفسهم من يقول له « آمين ، آمين » فهل بمثل هذا الدولاب الحكومى نستطيع أن نسير فى تنفيذ خطة أو برنامج ؟ فالى أن يعلم الوزير كيف يحترم رأى

موظفيه المختصين . وإلى أن يفهم هؤلاء الموظفون كيف يحترمون آراءهم . إلى أن توزع الأعباء والمسؤوليات بين الوزير ومعاونيه ، ويحل النظام محل الفوضى فى علاقة الرئيس بالمرؤوس ، فلن تكون الأداة الحكومية صالحة بعد للسير الجدى فى تنفيذ مشروع من المشروعات ، وإنى أسوق إليك مثلا صغيراً للأداة الحكومية الصالحة ، ماذكره يوما صحفى أمريكى قال إنه ذهب لمقابلة وزير خارجية إنجلترا قبيل إعلان الحرب العظمى ليسأله عن موقف انجلترا من ذلك الحدث الهائل الذى يهدد العالم فوجد الوزير مطرقاً فى مكتبه وإلى جانبه وكيل وزارته الدائم غارقاً بين تقارير فنية ووثائق تاريخية . فرفع الوزير رأسه وقال للصحفى : « تسألنى عما إذا كنا سندخل الحرب ؟ ! لست أنا الذى يستطيع أن يجيب الآن عن هذا السؤال الخطير . ثم أشار إلى وكيل وزارته وقال : « أن وكيل الوزارة يبحث الموضوع من كل وجوهه وهو وحده الآن صاحب الكلمة وعليه تقع التبعة ونتيجة أبحاثه هى وحدها التى ستنير لنا الطريق كسياسيين ، فنقرر إذا كان من واجب بريطانيا العظمى دخول الحرب ؟ ! »

من مساجلات مع منصور فهمى عام ١٩٣٧

الحرب بكل الأسلحة

كارثة أخرى من الكوارث التى نكبت بها مصر ، هذا الغلو والإغراق فى الخصومات . فإذا اختلفنا على رأى فنحن أفيال هائجة تدوس كل شىء وتحطم كل شىء إن فى كل بلد راق حدوداً مقدسة تقف عندها الخصومة ، وأسلحة لا يلجأ إليها أبناء الوطن الواحد . فاقحام الدين مثلا فى ميادين الخلاف السياسى أمر لا يمكن أن يحدث اليوم فى أى شعب ديموقراطى متحضر . فالديموقراطية ليست كلمة تقال فى الخطب لأنها جميلة ذات رنين . ولا هى بناء شامخ يسمونه البرلمان . لكن الديمقراطية هى روح المساواة والإخاء وحرية الفكر المكفولة للجميع . وإن كل طعنة تصيب كتلة الوطن فتحللها إلى عناصر أو طوائف إنما هى طعنة مسمومة تصل مباشرة إلى قلب الأمة وصميم الديمقراطية . كذلك ينبغى أن نتذكر دائماً أن الخصم فى المبدأ هو مواطن مصرى قبل كل شىء . وأن خصومة المبادىء ليس معناها القضاء المبرم على الأشخاص بكل الأسلحة ، وتعطيل كل أدوات المنفعة التى قد ترجى منهم فى وقت من الأوقات . فليس من حق مواطن أن يقضى على مواطن آخر قضاء يخرجه إلى الأبد من ميدان النفع العام . وإنما الغرض الذى يسعى إليه الجميع هو خدمة الوطن وحده . فلتكن الخصومة فى

حدود التنافس على القيام بخدمة المجموع . وليعتقد كل فى خصمه أن عجزه يوماً عن خدمة بلاده على الوجه المطلوب لايمنع من استطاعته ذلك فى يوم آخر ، فلتكن إذن السهام المصوبة من طرف إلى طرف فى غير مقتل من الشخصية والآدمية والشرف فليس من مصلحة الوطن أن تفرش أرضه بصرعى وقتلى من أبنائه العاملين إنما المصلحة هى فى أن تتداول السواعد إدارة العجلة ، وأن تتهيأ لكل يد الفرصة لخدمة البلاد .

من مساجلات مع منصور فهمى عام ١٩٣٨

نعيم الانتخابات

معذرة ياصديقى إذ أقطع اليوم سلسلة مناقشاتنا الإصلاحية لأتحدث فى خاطرة مرت بى، ولعلها مرت بك. فالأفكار الآن لا يشغلها غير أمر واحد: الانتخابات. يخيل إلى أن موسم الانتخابات نعيم لكل الناس إلا للمتقدم إلى الانتخاب: ويل لهذا المتقدم. إن كل خطوة يخطوها إلى الميدان نفقة وغرامة. فهو لا يحرك رجليه قبل أن يدفع مائة وخمسين جنيها «رسوم الامتحان» ثم يسير فاتحاً جيوبه بالمال وعيونه بالحرص والحذر وفمه بالكلام والخطب والوعود. أما نحن معشر النظارة و (المتفرجين) المحايدين فهو لنا تسلية أمتع من سباق «الدربى» وإنى لأرى الناس حولى مبتسمين يتحدثون فى أخبار هذه «الملهاة» بلذة واهتمام. وأرى فئة العارفين والحذاق يستعرضون المرشحين ويوازنون بينهم كما يوازن أهل الخبرة بين كرام الجياد وهى تتبختر فى المضمار فوق العشب الأخضر قبل بدء السباق. على أن النعيم الحقيقى فيما أرى هو من نصيب الفلاح المسكين. هذا المخلوق العارى القدمين الذى يجوع أكثر الأسبوع، ولا يرى وجه القرش إلا مصادفة، كما نرى نحن وجه الحظ عابراً فى طريق الحياة. هذا الذى يسمونه إنساناً بحكم النوع وهو فى الحقيقة لا يسترعى التفات إنسان. هذا الآدمى المهمل الذليل لا يرد اعتباره ولا تعود إليه آدميته إلا فى أيام الانتخابات: فان «صوته» الضائع مع الريح

كأنه صوت كلب ضال ، هو اليوم « صوت » له خطره وله سعره وله طلابه وله من يجرى خلفه ويقدره قدره ويدفع فيه نقوداً . وهذه المعدة الخاوية التى لم يدخلها غير الفجل والجبن ذى الدود تنتظرها اليوم الولائم وتذبح من أجلها ذوات الأجنحة والقرون .

وتلك الأقدام الحافية التى لم تعرف غير المشى خلف حمير « السباخ » توضع اليوم تحت تصرفها السيارات « والتاكسيات » تنقلها من حفلة إلى حفلة . نعم إنها لا تحسب من عمر الفلاح ، وهو بذكائه يعرف أنها لا تدوم فهو يستمتع بها من غير غرور ، ويراها تزول فما يأسف ولا يزيد على أن يقول :

— كانت أيام (استنخاب) ركبنا فيها (كنابيل) وأكلنا (زفر) ودخلت جيوبنا (نقدية) .

من يدرى لعل فريضة (الزكاة) التى ذهبت مع الزمن قد عادت اليوم فى ثوب جديد . نعم إن لم يكن من فضيلة الإنتخابات إلا أن تشترى صوت الفقير بالذهب وتسد فمه بالطعام ، وتركبه مالم يركب وتريه مالم ير وتحيطه بمظاهر العناية والاحترام ولو إلى وقت قصير لكفى بها فضيلة . إن الإنتخابات فى نظرى ليست حتى الساعه فى هذا البلد مظهراً من مظاهر الديمقراطية . ولكنها أول معلم يفهم الفلاح أولا معنى الحياة الإنسانية ويذيقه طعم الآدمية .

من مساجلات مع منصور فهمى عام ١٩٣٨

(شركة مقاولات) الانتخابات

نعم ياصديقى . لقد خطر لى أن فى الإمكان إنشاء مثل هذه الشركة تسهيلا للعمل فان من المرشحين من قد يكون مثلى ومثلك فى براءة الحمل الوديع لايعرف كيف ينال من خصومه ولا كيف يمدح نفسه ولا كيف يضحك على ذقون الناخبين . فما أحسن لمثلنا من أن يتوجه إلى مثل هذه الشركة و يتفق معها على (المقاولة) و يدفع (العربون) ويذهب إلى منزله فينام ملء عينيه وتقوم هى بكل ما يجب من إقامة السرداق وتأجير الخطباء وإعداد الولائم وجمع المعلومات عن فضائح الخصم ومثالبه الشخصية الخ الخ وما على مثلى ومثلك بعد ذلك إلا أن يذهب إذا شاء خفية على سبيل حب الاستطلاع و يجلس فى سرادق الاحتفال الذى تقيمه الشركة فيرى ويسمع اللذيذ الطريف . . يرى خطباء الشركة قد قاموا او اعتلوا المنصة واحدا تلو واحد ، يوسعونه مدحا ويسردون تاريخ حياته الحافل بكل جليل ومجيد . و يتكلمون فى ذمته وطهره وكفايته ونزاهته وهو لم يرهم ولم يروه مرة قط . ثم يعرجون على خصمه فيطعنون فيه الطعن المر و يذكرون من خصاله الذميمة وأعماله الخبيثة وخياناته وسفالاته ماتشمئز منه النفوس . وما تكاد تختم هذه الحفلات على خير أو شر حتى تقدم الشركة (فاتورة) الحساب . فاذا استكثرت المبلغ

أقسموا لك أن الشركة قامت بنفقات باهظة وأن خصمك وحده كلف الشركة (شتائم) بما يساوى مائة جنيه إلى هنا لا بأس . لكن إذا خطر لك أن تسير قليلا فى البلدة لوجدت عجبا . فان سرادقاً آخر قد نصبته عين الشركة لخصمك هو أيضاً . وقد قام فيه خطباء آخرون من قبل الشركة يمدحون الخصم و يغسلون عنه ما لحقه فى السرادق الأول و ينزلون بك أنت كل تهمة وكل عيب و يلصقون بك من (الشتائم) مايساوى مائتى جنيه . فاذا ذهبت غاضباً إلى الشركة قالوا لك :

— ياحبيبى حضرتك (ز بون) وحضرته (ز بون) ! !

فاذا صحت محتجاً ابتسموا لك فى أدب بما معناه أن : (لا فضل لزبون على ز بون إلا با ا . . .)

هذه الشركة الخيالية غير موجودة من حسن الحظ على هذا الوضع . ولكن من يدرى . لعل الحال فى جوهره يجرى أحياناً على هذا المنوال فان ما يسمونه (حفلات) الانتخاب يؤدى غالبا إلى مثل ذلك بدون أن نقصد . و إن يد (التنظيم) هذه إذا دخلت فى مسائل الواجب والضمير فانها تتجه غالبا إلى فم الساذجين فتزحمه بألوان من الطعام يضيع معها صوت الواجب والضمير ! !

من محاجلات مع منصور فهمى عام ١٩٣٨

ترى ونحن على هذه الحال من البراءة والسذاجة لوحدثتنا النفس الملعونة بالنزول من أبراج فكرنا العاجية والجلوس تحت قبة البرلمان الذهبية ماذا كنا نخطب قائلين للناخبين ؟

أما أنا فانى كنت أقول هكذا :

سادتى الناخبين :

باسم الديمقراطية أتقدم إليكم ملتمساً ، عطفكم ، إنى أحب الديمقراطية ، ومن ذا الذى لايحب الديمقراطية ؟ تسألوننى ما معنى هذه الكلمة التى تسمعونها هذه الأيام كثيراً ؟ تعريفها بسيط « إن الديمقراطية هى أن رهطاً من الجياع الحفاة يمنحون مرتباً شهرياً قدره أربعون جنيها لرهط آخر من الثراة العتاة » ؛ لعل هذا المنطق يدهشكم ، ولكن تلك هى الحقيقة ! هنالك أعجب من ذلك . فان جوف الحقيقة مملوء دائماً بالغرائب لمن أراد الغوص عليها . إن بيننا معشر المرشحين وبينكم معشر الناخبين سوء تفاهم كبير . فاننا نطلب إليكم أن تخدمونا وأنتم تحسبون أننا وجدنا كى نخدمكم ، أنتم تظنون البرلمان هو المكان الذى نتكلم فيه عنكم طول الوقت وعن جوعكم وفقركم وجهلكم ونبحث تحت قبته كل يوم عن وسائل رخائكم ورقيكم ، ونحن نرى فى تلك القبة الذهبيه شرفاً رفيعاً لمن استطاع أن يقتنص له تحتها مقعداً

وترى في عضوية المجلس لقباً نتوج به أسماءنا ونزين به (بطاقاتنا).
إن عضوية البرلمان في نظرنا ليست إلا عربة (الرولزرويس) التي ترفع بها مركزنا الاجتماعي في أعين الشعب. ونحن إذ ننفق المال في هذا السبيل إنما ننفقه ونحن معتقدون أننا نشتري به وظيفة أو لقباً أو مقاماً، فاذا ما ظفرنا بما نريد بفضل أصواتكم، ووجدنا أيديكم العارية السمراء تحملنا إلى داخل ذلك المكان، فاننا نتربع فيه كالعرائس في (الفترينات)، ومهما صحتم وناديتم وصرختم بعد ذلك فاننا لا نسمع أصواتكم لأن بيننا وبينكم حاجزاً من زجاج ولن تستطيعوا أن تلمسونا أو تقربونا، ولكنكم تستطيعون أن تشيروا بأصابعكم من خلف البللور، فنحسب ذلك منكم إعجاباً، فتزداد صلفاً وتيهاً!

أيها الناخبون: عجباً، إني حقاً لعلى غاية السذاجة إذا أفضي إليكم بكل هذا في خطبتي التي على أساسها أنتخب. ما العمل الآن؟ أتنتخبونني برغم ذلك؟ لعل صراحتي على الأقل تشفع لي؟!

من مساجلات مع منصور فهمي عام ١٩٣٨

الشحاذون

إن تعاقب الوزارات السريع فى مصر ، يقذف اليوم على أفاريز الفراغ بعدد وافر من أصحاب (المعالى) لا يصنعون شيئاً غير الانتظار فى (ميادين) السياسة ، ممدودى الأكف . ينتظرون ماذا هؤلاء المتعطلون ؟ ينتظرون دورهم فى العودة إلى الركوب .

نعم . إن (الحكم) أصبح الآن مثل أرجوحة (الخيول الخشبية الدائرة) التى يركبها الأطفال فى مقابل مليمات ، ولو أعطى طفل ألف مليم لأنفقها كلها فى هذه اللعبة اللذيذة ، فهو يحب الركوب لمجرد الركوب فوق هذا الحصان الخشبى المطلى بالذهب ، الملون بأزهى الألوان الخادعة ، وإن دوره ينتهى ورأسه يميل من الدوار فلا يفيق إلا وقد أنزله صاحب الأرجوحة على الأرض ، فيظل واقفاً بلا حراك ينظر إلى حصانه يدور بغيره ، وفى قلبه الصغير حسرة ، وفى عينيه الزائغتين علامات الصبر النافذ ، إلى أن تنتهى الدورة فيخفق قلبه أملا فى أن يعود إلى الركوب ، وهكذا دواليك !

أما الفائدة من ذلك فلا شىء غير اللهو والسرور فهو متى امتطى صهوة الحصان الخشبى تملكه الغرور ، وظن أن هذا غاية الأمل وأنه قد وصل . ويلعب برأسه دوار « الأرجوحة » ، أو دوار السلطة الباطلة و « الفروسية » الكاذبة ، فيقنع بذلك ولا يفعل شيئاً غير

ازدراء الواقفين فى الانتظار وهو يمر بهم مر البرق متعالياً متصايحاً صياح اللذة والظفر !

فالحياة فى مصر لهو فى لهو ، وتعطل إلى جانب تعطل ، وفراغ إلى جانب فراغ . الجميع من شبان وسياسيين ، وقادة ومقودين ، لا عمل لهم غير التطلع إلى خيول « المناصب الحكومية » الخشبية وهى تدور ! وهذا الروح العام قد أثر فى روح الشعب كله ، فنحن لا نكاد نرى طرقات مصر خالية من أناس أشداء يتطلعون إلى موائد المقاهى ويمدون أيديهم يطلبون شيئا ، لقد سرت روح البطالة والسؤال فى كل طبقات الشعب ، الجاهل منها والمتعلم ، وكدنا نعتقد أن مصر قد نسيت أن فى الوجود شيئا يسمى العمل والكدح والاعتماد على النفس ، إن مصر قد أصبحت بلداً تخفق عليه راية « التسول » العام ، وهنا الخطر الداهم ، ولا أبالغ إذ قلت إن روح « الشحاذة » موجود فى كل نفس مصرية فى الوقت الحاضر ، فالوزير الذى تسول طويلا فى انتظار منصبه لا يكاد يدخل مكتبه كل صباح حتى يرى هو الآخر أفواج المنتظرين من أصحاب السؤال يمدون أيديهم ليعطيهم مما اعطاه الله ، فيثقلون كاهله بطلبات النقل أو التعيين أو الترقية أو العلاوة أو إلغاء عقوبة أو التماس منحة ، و يضيع الجزء الأكبر من عمل الوزير اليومى فى التخلص من هؤلاء السائلين .

وتمكنت هذه العادة المرذولة إلى حد نرى معه بعض الناس

ينتظرون حتى يسألوا جيرانهم الجرائد ليقرأوها « شحاذة » وإلى حد أرى معه أنا المؤلف كل يوم من يسألني نسخة من كتبي (شحاذة) ولا أستطيع أن أجلس في مكان حتى أسمع من حولي أصوات الالحاح في سؤال شيء من الأشياء

حقيقة إن الحياة في مصر أصبحت لا تطاق ، فاما أن يتغير هذا الروح العام وإما أن نيأس ونحكم على هذا الشعب أقسى الأحكام .

على أني أعود فأقول دائما إن الذنب في كل هذا واقع على كاهل القادة وحدهم من رجال الحكم والسياسة ، فهم الذين علموا الشعب كله وغرسوا فيه روح البطالة والتسول والصياح ! ولو أن الشعب رأى رءوسه ورجالاته يعملون في سكون ، لخجل وعمل هو أيضا بغير صخب ولأصبحنا حقيقة شعبا متحضرا يعمل ولا يتسول .

أريد أن أضع تحت أنظار ، وزرائنا ، مثل أبي بكر يوم ولي الخلافة ، فقد واصل عمله في بناء الدولة الفتية حتى رضي واطمأن ، فجهز إبله ذات صباح ، وأراد أن يخرج في تجارة له ، فاعترضه الناس دهشين :

— كيف تخرج في تجارتك وأنت الخليفة ؟

— وكيف أعيش وتلك صناعتي ؟

نعم ، هذا الرجل العظيم لم يكن يعتقد قط حتى ذلك الوقت ، أن سياسة الدولة عمل يرتزق منه ، إنما هو في نظره واجب محتوم عليه كعضو من أعضاء الأمة ، أما الارتزاق وأسباب العيش فينبغي أن يكفلها عمل آخر وكدح آخر !

الاحزاب والشعب

سألتنى إحدى المجلات السياسية عن رأيى فى أحزابنا المصرية ومدى قيامها بواجبها نحو تحسين حال الشعب . فقلت :

— إن المفروض فى ممثلى الشعب ، أن يتقدموا إلى المقاعد النيابية ، ببرامج ثابتة واضحة ، محدد فيها بالدقة ، الخطط ، ووسائل التنفيذ ، لمطالب طبقات الشعب المختلفة التى يمثلونها . . . ولكن الذى يحدث اليوم هو غير ذلك ، فإن كل مشروع حيوى يهم الشعب ، إنما يصدر عن جهات أخرى غير ممثلى الشعب ! . . . ولم نعد ندرى ، فيم يمثل هؤلاء الممثلون الأمة ؟ ! . . خذ مثلا ، مشروع مقاومة الحفاء ، ما كان أحراه أن يكون جزءاً من برنامج حزب من الأحزاب . . . إن كلمة أحزاب ، كما تفهم فى مصر ، تطلق فى الحقيقة على سبيل التجوز ، إذ ليس فى مصر حزب ، بالمعنى الحقيقى لكلمة حزب ، كما تفهم وتستعمل فى النظم الديمقراطية الصحيحة ! . . إنما فى مصر « فرق » منفصلة تسمى أحزابا لاهم لكل فرقة من هذه (الفرق) إلا (توزيع) المقاعد البرلمانية ، والحصول على المناصب الوزارية ، وتنظيم حركة (تذاكر) الانتخاب أما برنامج (الرواية) فليس من هم أحد التفكير فيه ! فالأمر فى ذلك يسير على نمط حفلات التمثيل (ومتعهديها) الذين يركزون كل نشاطهم ،

فى مسألة توزيع المقاعد، وتحصيل قيم التذاكر . . أما مسألة (البروجرام) والغرض من الحفلة وما إلى ذلك، فلا يلتفتون اليه، ولايجعلونه من شأنهم ! . . وإنى لأحب هنا أن أقول، إنه قد آن الأوان، لأن يسأل الشعب عن البرامج، شغل المقاعد.

إن الشعب اليوم، قد تغير فى نظرى، وإن عقليته قد تكونت، وأصبحت له رغبات حيوية تمس صميم غذائه اليومى، وحياته المادية... إنه يطالب اليوم أن يعيش، لامعنويا فقط، كما كنا ننادى بالأمس، ولكن ماديا أيضا، عن طريق اللقمة المتوفرة للملايين من المحرومين.

— ألم تتجه العناية فى هذه الأيام إلى طبقات الشعب الفقيرة ؟

— هذا صحيح. ولقد كثر جمع الصدقات، ونشطت حركة التبرعات . . . ومهما تكن الدوافع إلى ذلك، فهى على كل حال، عواطف كريمة، تنم عن تيقظ روح الأريحية فى نفوس ذوى الفضل من الأغنياء والقادرين. على أنه ينبغى لنا، مع ذلك، أن نتساءل : إلى متى نظل فى مصر، ونحن نملك فيها نظاما ديمقراطيا، نعتقد أن إصلاح شؤون الطبقة الفقيرة . . . معناه التصدق والاحسان؟! وإلى متى، ونحن لدينا برلمان، لانجد فيه ممثلين لملايين الطبقات الفقيرة، يدافعون عما تراه هذه الطبقات منهضا لها، مصلحا لحالها ؟! ما معنى الديمقراطية إذا لم تكن هى تمكين طبقات الشعب كلها على اختلاف مراتبها ومطالبها — من الدفاع عن نفسها بنفسها

تحت قباب المجالس النيابية ؟ !

ما من برلمان ، فى أى بلد ديمقراطى فى العالم ، يعرف هذا الوضع الذى نحن عليه . . . لأنه مامن أحزاب فى العالم تـكونت هذا التكوين الشخصى المرتجل كأحزابنا المصرية ، ذات الصبغة الشخصية الواحدة المتشابهة ! .

فى البلاد الأخرى أحزاب ، ذات مبادىء مقررة ، كل منها يدافع عن حقوق طبقة من طبقات الأمة ، ومن ضمن تمثيل الطبقات المختلفة على نحو يكفل التوازن بين المصـالح . بينما أحزابنا ، على تعـددها وكثرتها ، لاتمثل فى حقيقة الأمر ، غير طبقة واحدة ، هى طبقة الملاك . .

هى التى نسمع صوتها فى البرلمان ! وهى التى اتخـذت لنفسها صفة القوامة على الطبقات الأخرى . وهى التى تستطيع أن تمنـع وتحـرم الطبقـات الأخرى ، حتى من حق الاعـتراف بنقاباتها التى تنظم شؤونها ، وتدافع عن حقوقهـا ! !

ويحضرنى هنا ، مثل أحب أن أذكره ، فقد وجدت فى حانوت حلاقة ذات مرة ، حلاقين أحدهما يعمل إلى جانب الاخر ، ويتقاضيان أجرين متساويين ، الأول مصرى ، والثانى يونانى ، فعلمت شيئاً عجيباً . . فقد قال لى العامل المصرى إنه وهو فى بلاده ، لايستطيع أن يعلم أبناءه بالمجان ، ولا أن يستشفى بالمجان . وإنه لايجد أحداً ولا هيئة تعينه على تكاليف العيش . . بينما زميله اليونانى يعلم أولاده كلهم بالمجـان ، فى

المدارس اليونانية ، ويستشفى هو وعائلته بالمجان فى المستشفيات اليونانية ، لأن هناك هيئات ونقابات يونانية ، تعنى أتم العناية ، بمساعدة العمال والأجراء اليونانيين ! . . وقد روى لى هذا العامل المصرى أيضاً ، أنه ذهب بابنته الصغيرة يوما إلى مدرستنا الأولية ، فوجد عاملا مصريا آخر ، قد عجز عن دفع مصروفات ابنته ، على ضآلتها « عشرة قروش شهرياً » فاضطر إلى العودة بها إلى البيت ، مما حز فى نفس زميله ، فأخرج « أجره اليومى » من جيبه ودفعه من أجله .

لاشك أن أكثر الناس يوافقوننى على أن هذا الوضع للأشياء يجب أن يتغير.

الفكر والشعب

سألتني كذلك مجلة سياسية أخرى :

— هل ترون أن الكتاب الاجتماعيين فى القرن الماضى كانوا هم قادة الاصلاح فى أوربا وأمريكا ؟

— بالتأكيد . بل لايزال الكتاب حتى اليوم هم الذين يمهدون السبيل للإصلاحات والانقلابات الاجتماعية المقبلة . وإنى أرى أن كتابات روائى مثل شارلس ديكنز كان لها الفضل فى حمل ساسة انجلترا من محافظين وأحرار وعمال على وضع المسألة الاجتماعية فى رأس برامج أحزابهم . واليوم بالذات برغم الحرب وأهوالها لايفتأ ويلز وبرناردشو وبرستلى يرسمون الاتجاهات التى ينبغى أن يتجه إليها بعد الحرب لا الشعب البريطانى وحده بل البشر كافة . فهم يبغون انقضاء عهد الشقاء الاجتماعى وبزوغ عهد يستطيع أن يعيش فيه كل فرد حياة جديرة بالكرامة الآدمية ، فلا إغراق فى البؤس ولا إغراق فى الترف بل نظام يقوم على التوازن الاجتماعى والتضامن والتعاون . نعم الكتاب والمفكرون هم قادة الإصلاح ، وهم واضعوا أسسه وخططه فى كل زمان ومكان .

ولئن كانت حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر قد تأخرت حتى اليوم فذلك سببه تقصير الكتاب والأدباء . إنى أتهم بملء فمى

الأدب المصرى بهذا الجرم .

إن الأدب فى مصر لم يكن إلى عهود قريبة غير حلية عاطلة فى معاصم الأدباء . لقد كان يعيش هؤلاء الكتاب لا فقط على هامش المجتمع بل على هامش حياة الآخرين من أصحاب الجاه أو الثراء . لم يكن الأدب فى مصر إذن أداة تسجيل وتوجيه لشئون المجتمع ، ولم تكن أقلام الكتاب أبواقاً توقظ النائمين ، ولكنها كانت معازف ينعس على أنغامها المترفون . وإذا كان هؤلاء هم كتاب أمة وهذا هو أدبها فلا عجب إذا ظلت حال المجتمع المصرى على مانراه اليوم . .

على أن الأمر بالضرورة قد تغير الآن . وإنك تستطيع أن تقول إن الأدب فى مصر يتجه فى الطريق الصحيح ، وإن كثيراً من الكتاب المعاصرين نشروا كتباً وأفكاراً تتصل بصميم المجتمع ، وإن آراءهم تسمع وتحترم وتؤثر أحياناً فى اتجاهات الحياة العامة . .

كنتم أول من اقترح منذ عامين إنشاء وزارة الشئون الاجتماعية فى حديثكم المشهور عن النظام البرلمانى . وهاهى ذى قد أنشئت .

— إنى اقترحت أن يعدل اسم وزارة الأوقاف واختصاصها وتجعل « وزارة الأوقاف والحياة الاجتماعية » بهذا النص ، وكانت فكرتى فى ذلك أن يتسنى تحويل أموال الأوقاف إلى وجوه المنافع الاجتماعية المثمرة كالملاجىء والمستشفيات والنوادى الرياضية الخ . ولكن فكرتى قد أدت إلى إنشاء وزارة مستقلة لشئون المجتمع

فضاعف ذلك التفات الناس إلى الفكرة الاجتماعية فى ذاتها . وكان فى مجرد وجود هذا الهيكل الرسمى المخصص للمسألة الاجتماعية أقوى دعاية لهذه المسألة فى أنحاء البلاد . مما جعل الشعب كله يهتم بالمسألة الاجتماعية بعض اهتمامه بالسياسية . وأصبحت تثار فى البرلمان قضايا الفلاح والعامل وحقهما فى حياة إنسانية معقولة ، وحصة الفقير وحقه فى معونة الغنى . وأصبحنا نسمع كبار الأمة يتحدثون عن ضرورة الرقى بمستوى حياة الشعب . وكثرة المحاضرات فى كل مكان وتكونت جمعيات الإصلاح . وارتفعت أصوات الرحمة من القلوب وكلمات العدالة والانصاف من الأفواه ، كلها مجمعة على أنه ينبغى وضع حد لما نراه من استئثار مئات من أهل هذه البلاد بالخيرات وترك الملايين فى جوع وعرى كالسائمات . ولكنى أقول باعتبارى كاتبا إن الأمر لم يعد فى حاجة إلى توجيه فان حال الشعب الان لايختلف فيه اثنان وإن قادة الرأى ورجال الأمة ومفكريها يعرفون علل الشعب أتم معرفة ويوضحونها ويصفون لها العلاج . . وفى كل يوم يزداد عدد هؤلاء المفكرين والدعاة وتتسع دائرة المصغين إلى رسالتهم . إلى أن يأتى اليوم الذى تصبح فيه المسألة الاجتماعية هى المسألة الأولى فى الدولة ، لها صحافتها ولها ساستها ، وعلى أساسها تتقدم الأحزاب إلى الحكم ، ويكون النجاح أو الإخفاق فى تحقيق برامجها هو الذى يبقى الوزارات أو يسقطها .

فها أنت ذا ترى ما أرمى إليه : أن المسألة الاجتماعية عندنا هى فى طور « الهواية » ولن تدخل فى طور « العمل الجدى » إلا إذا طالب بها الشعب نفسه . . ولما كنا فى نظام ديمقراطى فان الشعب عندئذ يكون أحزابه وينتخب ممثليه طبقاً لهذه المطالب ، فالى أن تصبح إذن المسألة الاجتماعية فى مصر ذات تأثير مباشر فى أداة الحكم كالمسألة السياسية سواء بسواء ، فليس لنا أن نقول إن مصر مسأله اجتماعية على الإطلاق .

(كادر) المقامات

إنى مقر للتخفيض الذى حدث فى كادر المرتبات . فقد آن لهذا المخلوق الذى يسمونه (الموظف المصرى الكبير) أن يتواضع لله وللناس هذا الآدمى الذى خلقه الله بمواهب تساوى عشرين جنيها فى الشهر فقدرت له الدولة مواهبه بمائة جنيه الشهر . هذا الآدمى الذى ألقت به الطبيعة على الأرض ليزرع بسواعده العارية عملا مسؤولا ويحصد ثمرا معقولا . فاذا هو قد انزرع بين أوراق فارغة على مكتب مساحته فدان ليحصد آخر كل شهر غلة ٥٠٠ فـدان . هذا الآدمى الذى صنعت له أجيال الشباب المصرى فى نفوسها تمثالا ذهبيا تعبده فصرفها عن الالتفات إلى المغامرات الحرة العظيمة التى قام بها أشخاص اسمهم (فورد) و (روكفلر) و (كروب) بل حتى أشخاص فى المحيط المصرى اسمهم (عدس) و (بنزيين) و (موصيرى) هذا المثل الأعلى الحكومى الذى غرسته فى نفوسنا المرتبات الضخمة لعمل (الروتين) الفارغ ، هو الذى أفقدنا عدتنا من الرجال الأكفاء المنتجين ، وهو الذى أضاع من أيدينا ميادين الثروة الحقيقية فاحتلتها الأجانب الأحرار أصحاب النشاط الواقفون بالمرصاد

تخفيض آخر ينبغى أن نفكر فيه بعد أن انتهينا من كادر (المرتبات) ذلك هو كادر (المقامات) .

(مقاماتنا) أيضاً متضخمة أكثر مما ينبغى . تضخم غير طبيعى وهو ما قد يسمى فى عالم الطب بالانتفاخ وفى عالم الاجتماع (بالنفخة) وكلاهما فيما اعتقد شىء واحد. وعلته واحدة. و كلاهما إذا فتح بالمشرط وجد بداخله (هواء) فهى مجرد أسماء لا معنى لها وهى لا ترفع ولا تخفض ولا ينبغى لها أن تفعل . و يكفينا أن ننظر حولنا فلا نجد أمة واحدة من تلك الأمم المجيدة التى تعج بالعظماء فى مختلف الفروع والأعمال قد صارت على ما نسير عليه نحن الأمة الصغيرة الفقيرة . فان (مستر) (تشمبرلين) هو بلا شك من أرفع رجال الأرض مقاما فى العصر الحاضر ، ومع ذلك قد يشارك (مستر) جون كمسارى المترو فى لندن لقبه المتواضع . و (مسيو) دلاديه هو اليوم من أقطاب العالم ولا لقب عنده إلا ما عند (مسيو) ريمون خادم المطعم الذى يأكل فيه . تلك هى العظمة . وتلك هى الديمقراطية . بل إن (الهر) هتلر هو أيضاً لا يمتاز عن (الهر) شاخت سائق سيارته فى اللقب . قد يسند إليه أحياناً لقب (المستشار) غير أن هذا حقيقة لا لقب . بل أقل من حقيقة . لأن هتلر لا ينتظر حتى يستشار فى أمر من الأمور . وهو المتصرف وحده فى مصير بلده المؤثر فى أقدار الشعوب ولماذا نذهب بعيداً وقد كان الامبراطور العربى العظيم عمر بن الخطاب لا ينادى إلا بلفظ واحد : يا عمر . .

إنه فى رأيى داء تصاب به غالبا الأمم الصغيرة التافهة فهى كالطفل

يحب كل ما هو براق طنان أجوف ، وليت هذا الداء محصوراً فى طبقة كبار الموظفين وحدهم ، بل إنه مع الأسف قد تعداه إلى جسد الأمة كله . فاذا كل من لبس (بذلة) يتوق أن يناديه الجميع بلقب (بك) ويكتب له الجميع (صاحب العزة) وأصبح لقب (أفندى) سبا فاحشاً . ومن أراد أن يشتم أحداً فى الطريق العام أو على صفحات الجرائد أو على مظروف خطاب . فما عليه إلا أن يقول له يا (أفندى)

من المسئول عن هذا المرض الخطير ؟ لا أشك فى أنهم هم الموظفون الكبار أو قادة الأمر فى البلاد من أصحاب « الرفعة » و « الدولة » و « المعالى » الخ فهم بتكالبهم على المظاهر الفارغة قد علموا الشعب أن يحترم الألقاب أكثر من احترامه لمجرد الأعمال .

فلعل الروح الجديد الذى يسرى اليوم فى مصر الناهضة المستقلة يدفعها فى طريق العمل والبطولة الحقيقية ، ويحفزها أيضاً على التفكير فى تغيير نظرتها إلى الألقاب وتعديل كادر المقامات بما يتفق مع الروح السائد الآن فى العالم ومع طابع العصر الحاضر فى كل دول الأرض ، الديمقراطى منها وغير الديمقراطى ! !

حديث نشر عام ١٩٣٨

مصر والشعار الدولى

قرأت تعقيبكم على إثارتى لحركة خلع الطربوش فاسمحوا لى أن أبدى بعض حججى وأسبابى . وأبدأ فأقول أن لا محل للقلق والخوف من إضعاف الروح القومى إذا خلع الطربوش . فان الروح القومى هو فى القلب الحار لا فى ذلك (القرطاس) الأحمر . وقد يكون هنالك محل للخوف لو أننا كنا اول أمة فى الأرض قادمة على هذا التغيير . أما وقد فعلت ذلك قبلنا أمم شرقية هى الآن خير منا فى قوة روحها القومى فليس لنا إذن أن نتردد أو نخاف . فما من أحد يستطيع أن يقول أن اليابان ذات التقاليد الشرقية العريقة قد فقدت روحها القومى يوم لبست ولبس مليكها وهو ذو صفة دينية مقدسة اللباس الدولى الكامل وما من أحد يستطيع أن يقول إن النبى العربى كان له زى خاص . فهو قد لبس القلنسوة ولبس اللأمة ، ولم يكن هنالك فارق فى اللباس بين مسلم ومسيحى و يهودى . واليوم وقد اتجه العالم كله فى حضارته القائمة هذه الوجهة الجميلة وسن هذه السنة الحميدة التى ترمى إلى وحدة الزى فى الدنيا قاطبة ، هذه السنة التى عرفها الإسلام منذ نشأته فلم يحفل بزى أو بلباس حتى لا يجعل بين الناس فوارق غير ما لبسته أرواحهم ونفوسهم . اليوم وقد شعرنا بحاجتنا إلى الوحدة والمساواة داخل حدود بلدنا ، بازالة الفوارق التى تشطر السكان إلى طائفتين

غير متعادلتين . اليوم ونحن مقبلون على حياة خارجية قوامها الاندماج في عصبة الدول المتحضرة أى فائدة لنا فى أن نضع بيننا و بين أمم الأرض ذلك الفارق الظاهر الصارخ الذى ينادى فى كل حين بتخلفنا وحدنا دون غيرنا من الأمم الشرقية المسلمة وغير المسلمة التى أعلنت للعالم نهضتها وقامت تجلس جنباً إلى جنب مع أرقى الدول حضارة .

أما القول بأن تغيير لباس الرأس قد يجر إلى تغيير اللغة أيضاً . فالجواب عليه أن ننظر كذلك إلى غيرنا من الدول التى تماثلنا فى الحال ولنبحث هل غيرت اليابان والصين و إيران والعراق لغتها بل متى كان الاتحاد فى الزى يوجب الاتحاد فى التفكير ؟ إن الملحوظ فى حضارة اليوم أنها وحدت الزى فى شعوب الأرض مع عدم المساس بشخصية كل شعب وثقافته .

وها هى ذى أمريكا تماثل انجلترا فى الزى وتتكلم الإنجليزية مثلها ، ومع ذلك فان الأدب والثقافة وطريقة التفكير عند الأمريكان هى غيرها عند الإنجليز .

لا ينبغى إذن أن نتمسك بكلمة « الشعار الوطنى » لشعبنا أو لحكومتنا المصرية . فان مستقبلنا قد تغير . و بعد أن كنا شعبا منعزلا قد أصبحنا شعبا منضما إلى هيأة الشعوب الأخرى لنا مالهم وعلينا ما عليهم ، فالأحرى أن نتمسك منذ اليوم بكلمة « الشعار الدولى » الرسمى لأمم العالم كما تفعل كل أمة تركت عزلتها وظلمتها

وخرجت إلى الحياة والمجتمع والنور .

وبعد فانى لشديد الايمان بالتطور الطبيعى لما أراه من تطور الشرق السريع نحو حياة جديده وتفكير جديد قوامه الخروج عن العزلة والجمود إلى التجدد والتعاون مع العالم . وإنى لألحظ تقدم مصر فى هذا السبيل تقدما يشبه الركض على الرغم من المعارضة الكلامية الظاهرة . فالمرأة المصرية قد غيرت زيها فى سكون وشجاعة . قوافقها الرجال دون جدال . هذا يدلنى على أن مصر تتحرك بالفعل وتسير ، وإن كانت لا تزال تسير مفتونة بالكلام والمناقشة أثناء السير . نعم كل هذا يثبت عقيدتى أنه لن يأتى عام ١٩٥٠ حتى تكون مصر متحدة مع العالم المتحضر فى زيه الكامل المعروف . تلبية لنداء التطور الطبيعى للأشياء .

من رد على تعقيب خليل ثابت عام ١٩٣٦

المعنى الانسانى لوحدة الزى

مرة أخرى أناقش الحجة الوحيدة القائمة فى جانب « الطربوش »
وهى كلمة « الشعار الوطنى » وأغلب المصريين مفتون . بهذه الكلمة
وأغلب المصريين مازال يعتقد أن من المفاخر أن يتميز بلباس خاص ،
شعب صغير ، عن بقية شعوب الأرض القوية المتحضرة . وقليل من
المصريين يرى من المساخر أن يتمسك رجل أو رجلان بلباس أحمر
فاقع صارخ بين مئات وألوف من الرجال المحترمين المتحدين فى زى
معروف . لقد لحظ بحق أحد المفكرين أثناء سياحة طويلة فى آسيا
وإفريقيا : أن الشعوب المنحطة هى أكثر الشعوب تمسكا بتقاليد
الزى وأكثرها حبا فى التمييز عن غيرها من الأمم بأردية صارخة
الألوان . وأزيد أنا على هذا المفكر بقولى إن فكرة التمييز
بشعار خاص ليست فقط فكرة « بربرية » فى عصرنا الحاضر ، ولكنها
تدل كذلك على ضعف الادراك فى أمة من الأمم . فإن من علامات
الادراك الضعيف عدم اتساع أفقه للافكار الانسانية ولا ريب
عندى الآن أن خوفنا وترددنا فى مسألة كمسألة الطربوش وتمشدق
الكثيرين بكلمة « القومية » سببه الوحيد أننا لم نزل فى حالة (عزلة
ذهنيه) لا أكثر ولا أقل . فنحن فى الواقع لم نتصل حتى الآن بالعالم
المتحضر اتصالا يشعره بوجودنا ويشعرنا بأننا جزء منه . فنحن فى
حقيقة الأمر شعب صغير لا وجود له حتى الآن على خريطة الفكر

الانسانى المتحضر ، إنما نحن زراع وخدام وعبيد يعيشون على هامش الحضارة يخدمون المصالح المالية الأجنبية ، التى قبضت على وادى النيل منذ عشرات من الأعوام . هذا كل دورنا الذى نلعبه حتى الساعة فنحن لم نقدم للعالم مايدله على مساهمتنا فى التقدم الانسانى . لأن الفكرة الانسانية نفسها بعيدة عن ذهنيتنا . إننا لانفكر إلا فى أنفسنا وفى حياتنا الصغيرة وما يحيط بها من عوائد بالية ومعتقدات قديمة وتقاليد عتيقة . إن العالم المتحضر لايهمه أن يعرف عنا شيئاً . لأننا ليس عندنا مايستحق أن يعرفه العالم المتحضر ، ولأننا لانفكر مطلقا فى هذا العالم المتحضر . إنما نحن نعيش كفصيلة من الدواجن وكفى . وهو يسخرنا لحسابه تسخيراً ماديا وكفى إنى لا أقول إن خلعنا الطربوش سيأتى بالأعاجيب وسيغير هذا الموقف . كلا مطلقًا إنما أقول وأصر على القول إن مارأيته من اتجاه الناس نحو استنكار كل تغيير للبالى العتيق هذا الاستنكار العنيف وتكالب الناس حتى شباب الجيل الجديد مع الأسف الشديد على الاحتفاظ بروح (القبيلة) الجامد . كل هذا أدهشنى وأحزننى ودلنى على أن عقليتنا فى ذاتها لم تزل تميل إلى « العزلة الذهنيه » وأن جراثيم « البربرية » مازالت متأصلة فى نفوسنا ، وأن أمامنا وقتًا طويلا قبل أن نهضم الأفكار الانسانية فى ذاتها و نصبح أهلا للانضمام إلى هيئة الأمم المتحضرة التى لاتتميز باختلاف الزى واللباس والتى اتجهت كلها إلى وحدة الزى إيذانا بوحدة الانسانية .

البعث

« — حوريس — انهض ، انهض يا أوزيريس !

أنا ولدك حوريس . . .

جئت أعيد إليك الحياة ،

جئت أجمع أعظامك ،

وأربط عضلاتك ،

وأصل أعضاءك . . .

أنا حوريس الذى يكون أباه .

حوريس يعطيك عيونا لترى .

وآذانا لتسمع ، وأقداما لتسير ،

وسواعد لتعمل . . .

هاهى ذى أعضاؤك صحيحة ،

وجسدك ينمو ،

ودماؤك تدب فى عروقك .

إن لك دائما قلبك الحقيقى ،

قلبك الماضى !

الميت — إنى حى ، إنى حى ! .

« كتاب الموتى »

وحوريس ليس إلا الشباب ، يعيد الحيـاة إلى ماضيه الميت . نعم هو الشباب الذى يـكون أباه الوطن . وقد أعطاه بالفعل عيوناً يرى بها غابره العظيم فى حريته وحاضره الذليل فى قيود الغرباء ، وآذاناً يسمع بها ضحكات السخرية من أفـواه الجبناء الذين جاءوا يستغلون رقاده ويستلبون خيراته . كما أعطـاه أقداما يسير بها كى يثبت لهم أنه حى ، وسواعـد يعمل بهـا على تشييد الصرح المهـدوم . إن أعضاء الوطن صحيحة لم ينقص منها عضو . وها هو ذا جسـده يتحرك وينمو ، والدم يجرى فى شراينه . والشباب على رأسه يصيح : « إن لك دائماً قلبك الحقيقى . قلبك الماضى ! . » ويخيل إلى أنى أسمع الوطن من كل جانب يلبى النداء ويهيب الشباب الأبناء : « إنى حى ، إنى حى ! » إنى دائماً أؤمن بأن مصر لا يمكن أن تموت . لأن مصر منذ الأزل ظلت تعمل وتكد آلاف السنين لهدف واحد : مكافحة الموت ، ولقد فازت مصر ببغيتها . وكلما ظن الموت أنه انتصر ، قام حوريس من أبنائها يصيح : « انهض ، انهض أيها الوطن ! . إن لك قلبك ، قلبك الحقيقى دائماً . . قلبك الماضى » ، وإذا الموت يتراجع أمام صوت مدوّ من أعماق الوطن :

« إنى حى . إنى حى ! »

دولة العميان !..

هل سمع أحد حتى الآن عن اعمى لاتدرك يده اليمنى ماتصنعه يده اليسري ؟ . .

انها ليست على مثال تلك الدولة من العميان التى صورها الكاتب الانجليزى « ويلز » فى احدى قصصه .. فدولته تسير على الاقل تبعا لمنطق خاص .. وتجرى الحياة فيها على نهج متواضع عليه .. أهلها لايبصرون بعيونهم حقيقة .. ولكنهم استعاضوا عن العين بحواس أخرى ، أظهرت لهم حقائق الوجود فى أشكال جديدة ، وأنشأت لهم مجتمعا قائما على قواعد خاصة به .. قد ينكرها الغريب عنهم ، ويعجب لها غير الخاضع لظروفهم .. ولكنها فى محيطهم هم طبيعة صادقة معقولة .. تعهدتها يد الخبرة والعناية ، وأدارتها فى فلك الأيام متسقة منتظمة مصقولة ... لاتلمح فى بنائها ثغرة تنم عن عبث أو فوضى أو خرق أو هوس .

أما دولتنا التى نتحدث عنها هنا فمختلفة كل الاختلاف .. فالعمى فيها من نوع غير معروف .. وهل سمع أحد حتى الآن عن أعمى لاتدرك يده اليمنى ماتصنعه يده اليسرى ؟ ! .. هذه العجيبة قد وقعت .. ولم تقع مرة .. ولكنها تقع كثيراً .. وتكاد تكون من الظواهر العادية التى تحدث فى كل يوم .. ولعل أكثرنا ماعاد

يعجب لحدوثها .. وهل دهش كثير من القراء وهم يطالعون خبر تلك المصلحة التى تملك قطعة من الارض مناصفة مع مصلحة أخرى فأجرت الاولى نصيبها لاحدى الشركات بسعر ٣١٥ جنيها للفدان بينما أجرت المصلحة الاخرى نصيبها لذات الشركه بسعر ٢٠ جنيها للفدان . وظل الامر على ذلك عشر سنوات ، بلغت فيها خسارة الدولة ٤٠ ألف جنيه .. فلما سئلت المصلحة الاخيرة فى الامر قالت إنها لم تكن تعرف أن المصلحة الاولى كانت تؤجر نصيبها بذلك السعر المرتفع ! .. وهاتان المصلحتان الشريكتان تابعتان لحكومة واحدة فى دولة واحدة ؟ ! .. ولكنها دولة العميان التى لا تعرف فيها اليد اليمنى ما تصنعه اليد اليسرى ! ..

* * *

ومثل هذا كثير فى هذه الدولة .. فبينما تندفع أفواج الطلاب فى التعليم الثانوى تطلب أمكنة فى بعض المدارس المزدحمة .. يهمس نظار بعض المدارس الاخرى قائلين إن لديهم متسعا للطلبة وفرجا وأولئك لا يعرفون ، وهؤلاء لا يتكلمون . والوزارة لا ترى هذا ولا ذاك .

وفى كل عام تطرق أبواب الكليات جيوش من الطلبة ، فتوصد دونها الابواب ، كأنها جيوش كلاب تهجم على طعام لاحق لها فيه .. وما من أحد يسائل نفسه ما مصير هؤلاء المطرودين .. وإذا

وإذا نجحنا فى نفض أيدينا منهم هذا العام ، فماذا نحن فاعلون بأضعافهم فيما يستقبل من أعوام ؟.. فى دولة العميان لا حساب للغد ولا إدراك للزمن !..

وفى كل جهة من جهات الحكومة موظفون لهم عين المؤهلات ويقومون بعين العمل . . ولكنهم فى هذه المصلحة يقبضون أجراً ملائماً . . وفى مصلحة أخرى ينالون أجراً لا يمسك الرمق . . فاذا أبدوا العجب لهذه الفوضى . . سمعوا ألفاظاً غريبة .. مثل «الكادر» و « التنسيق » . . وغير ذلك من هذيان العميان ! . .

وفى كل ناحية من نواحى الايراد أناس يدفعون للدولة ضرائب وأناس لا يدفعون . . وربما كان الذى لا يدفع هو الأقدر على الأداء .. فاذا بحثنا فى النسب والمقاييس التى يؤدى بمقتضاها الناس ضرائبهم وجدنا عجباً من التخبط وضياع العدالة !.. فأيدى الدولة هنا لاتدرى فى أى جيب توضع . . وإذا دخلت بالمصادفة فى جيب من الجيوب لا تعرف كم تدع وكم تأخذ ! . .

ما العلاج لهذه العاهة المتمكنة فى هذه الدولة !؟ تلك العاهة التى أدت إلى ثورة الطوائف وتخبط النظم ؟!

لو كان الأمر بيدى لأشرت بصنع « عين » مهمتها أن تبصر لهذه الدولة ، وأن تربط أعضاءها بعضها ببعض . وأن ترى لها الطريق اليوم وفى المستقبل . ولنطلق على هذه العين إسما من تلك الأسماء

المألوفة لدينا . فليكن اسمها مثلا : « وزير الخطط » أو « وزير المشروعات » أو وزير التناسق الحكومي ... لا تتبعه وزارة من هذه الوزارات المعروفة .. ولا يكون هو على رأس وزارة من النوع المعروف . ولكنه يوضع في مكان مستقل . . مع جلة من الخبراء والاخصائيين يرسمون « خريطة دقيقة لا تحيز فيها ولا محاباة . . يوضع فيها كل موظف وكل فرد وكل عامل وكل ممول وكل منتج في مكانه الذي يكفل له الانصاف في الحقوق والواجبات . ويدرسون حاجة البلاد في كل مرافقها في حاضرها ومستقبلها . ويضعون الخطط الثابتة ويهيئون المشروعات للسنوات الخمس أو العشر . . في التعليم والري والزراعة والتجارة والصناعة الخ . .

إن في تولي هيئة واحدة بحث هذه المشروعات جملة في دار واحدة أكبر ضمان للتناسق والنظام . لأن كل هذه الفروع المختلفة في الظاهر مرتبط بعضها ببعض في الباطن .. لقد قيل ان فتح أبواب التعليم على مصاريعها في بعض الكليات لا يؤدي في مصر إلى خير لماذا ؟ لأن النشاط التجاري أو الصناعي الذي يستوعب في أوروبا أكثر الخريجين . متخلف في بلادنا عن النشاط العلمي النظري .

لابد إذن من إيجاد نوع من التنسيق بين نشاطنا التعليمي ونشاطنا الاقتصادي . . وقل مثل ذلك في كثير من نواحي خططنا ومشروعاتنا التي تحتاج إلى دراستها جملة ، وتحت قيادة واحدة حتى لا

يؤدى البحث والتنفيذ إلى ذلك التخبط الذى نرى صدامه كل يوم بين وزارة ووزارة ! . .

كارثتنا هى أن كل وزارة لاترى فى الوجود إلا نفسها . فهى تضع مشروعاتها مستقلة وقد عصبت رأسها بقناع . فلا ترى عينها العمياء شيئاً . . ولا تلمس يدها إلا ورق ملفاتها هى . .

وسيظل الحال هكذا طويلا فى دولة العميان . إلى أن نفطن آخر الأمر إلى ضرورة إيجاد تلك « العين » التى تشرف من عل . . . على كل أمورنا جملة ببصر حاد نافذ خبير ! . .

فى المرأة

المرأة والمجتمع

إنه ليدهشنى حقاً أن بعض الشباب المثقف نادى يوماً بفصل الجنسين فى الجامعة المصرية ، فى وقت أثمر فيه نظام الدراسة المتحدة وأخرج لنا فتيات حائزات على الليسانس والماجستير والدكتوراه ، هن فخر مصر وهن أنصع دليل على رقى مصر العقلى فى الوقت الحاضر . إن القول بأن المرأة للبيت لا لمزاحمة الرجل لا يحول مطلقاً دون تثقيف المرأة تثقيفاً تاماً لتكون زينة البيت وأستاذ الطفل ومعلم الجيل . إن المرأة ليست قطعة من أثاث البيت توضع فيه بجهلها وعقلها المغلق . وهى ليست خادماً تطعم الرجل وتغسل له ملابسه ، ولكنها شريك محترم ينبغى أن يجد فيه الرجل متعة عقلية تحبب إليه البيت .

أما شبع رجالنا طول الأجيال الماضية جلوساً فى القهوات والحانات يأنس بعضهم ببعض ، هاربين من وحشة المنزل الذى لا يحوى غير نساء كالخادمات ؟ نعم . إن المرأة

للبيت . ولكنها لكى تكون بحق ملكة البيت وقرة عينه يجب أن تتثقف أكمل ثقافة . إن من النساء فى صدر الاسلام من فقن الرجال فى فنون الشعر والأدب والعلم والجدل . وقد كان لبعضهن مجالس مشهورة يحضرها رجال الدولة ونوابغ الشعراء والأدباء والمغنين . وكان ذلك فى عصر لم تزاحم فيه المرأة الرجل فى المناصب والأعمال . كذلك فلنقل عن ثقافة المرأة الأوروبية يوم كانت صالوناتها تضم أعظم العباقرة دون أن تخرج المرأة وقتئذ من أجل ذلك عن وظيفتها فتزاحم الرجل فى أسباب معاشه . لا ينبغى إذن أن نخلط بين أمر تثقيف المرأة وبين أمر وظيفتها . إن المرأة زهرة البيت وروحه ، بل زهرة المجتمع وروحه ، كلنا فى ذلك متفقون ، فلنجعلها إذن زهرة . وهل نعرف زهرة أينعت دون أن تتعرض قليلا للشمس والهواء ؟ ! فلنحاذر كل الحذر من حبس المرأة . فان فى ذلك حبساً لعقلها وموتاً لشخصيتها . ولنذكر أننا إلى اليوم ندفع غالياً ثمن سجن المرأة المصرية فى الماضى . فهى كلما دعتها الظروف إلى مواجهة الحياة والمجتمع اهتزت قدماها ضعفاً واحمر وجهها حياء وتلعثمت وتعثرت فى هزالها النفسى والفكرى وظهرت بمظهر يدعو إلى الرثاء والاشفاق ، وبدت للأعين أقرب إلى الخادمات المحجوبات منها إلى سيدة مهذبة قوية بشخصيتها وتجاريبها واثقة من نفسها ومن احترام الناس لها . كل هذا حدث لأن المرأة فى مصر ذبل عقلها من طول

السجن ولم تعتد مواجهة المجتمع منذ الصغر . إن إقصاء المرأة عن مجتمعنا كما يقصى الحيوان الحقير جريمة فظيعة ، هى القتل المعنوى بعينه لا أكثر ولا أقل ، وهى الامتهان لكرامتها ولآدميتها امتهاناً يجب عليها أن تثور من أجله وأن تقيم الدنيا وتقعدها ولا تسكت عنه كما سكتت فيما مضى من أجيال . فان المسألة مسألة حياتها أو موتها . وإن الذين يريدون قتلها باسم الدين ، والدين برىء ، لا يدركون أنهم بذلك إنما يقتلون أنفسهم بأيديهم .

إن عقل المرأة إذا ذبل ومات فقد ذبل عقل الامة كلها ومات –

المرأة والفن

إنى إذ أتكلم عن الفن لا يسعنى إلا أن أعترف مرغماً أن المرأة هى روح الفن ، ولو لم توجد المرأة على هذه الأرض فربما وجد العلم ، لكن المحقق أنه ما كان يوجد الفن ، ذلك أن الالهام الفنى هو نفسه قد خلق على صورة امرأة ، وأن لكل لون من ألوان الفن عروسا هى التى تنثر أزهاره على الناس . مامن فنان على هذه الأرض أبدع شيئاً إلا فى ظل امرأة ، وهذا القول منى غريب ، ولأبادر بتوضيح قصدى حتى لا يقال إنى رجعت إلى فضيلة الحق ، أعنى الحق الذى تراه المرأة ، كلا إنى لم أرجع إلى هذه الفضيلة بعد . وكل ما فى المسأله أنى دائما أفرق بين المرأة كشىء يوحى بالجمال ، وبين المرأة كمخلوق يريد أن يستأثر بكل شىء فى حياتنا . إن عداوتى لهذا المخلوق لن تنقطع مادمت أخشى منه . إن عداوتى ليست إلا دفاعا عن نفسى . فلو أن المرأة تمثال من الفضة فوق مكتبى ، أو باقة من الزهر فى حجرتى ، أو اسطوانة موسيقية أنطقها وأسكتها بإرادتى ، لما كان لها عندى غير تقديس وإكبار لا يحدهما حد . ولكنها للاسف شىء يتكلم ويتحرك وهى أحيانا كالطفل يلقى من النافذة كل شىء ثمين ويجلس على حافتها يضحك ضحكة الانتصار . على أن الإنصاف يقتضينى أن أقول إن المرأة إذ تحطم من جانب فهى تبنى من جانب . إنها كالطبيعة

فى يديها العبقريتان : عبقرية الفناء وعبقرية البناء ، وإنه لمن المستحيل أن نرى فى التاريخ حضارة قامت بدونهـا ولا انحطت بدونهـا ، وإن عرشها فى مملكة الفن أظهر العروش. إننى أستطيع أن أقول على سبيل المثال إن أجمل الفن الرومانتيكى الفرنسى إنمـا نبع تحت أقدام « مدام ريكاميه » وإن صالونات السيدات فى أوروبا ، ومجالس الشعر والغناء فى الشرق عند العرب هى التى أخرجت أجمل مافى الغرب والشرق من شعر وآداب وفنون . ولا أستطيع أن أضرب هنا الأمثلة ، ولـكن من يفتح أى كتاب من كتب العرب القديمة يرى وصف تلك المجالس التى كانت تتصـدرها نساء كالشموس ، وتضم فحول الشعراء والمغنين ويقرأ تلك الأخبار التى لاتنتهى عن ذكر الجوارى المثقفات والنساء الشريفات اللائى كن ينظمن فى السر والعلن ، تلك المجالس التى فيها نظم أجمل الشعر ، وتفتحت أزاهير أنبغ القرائح ،ولعلية أخت هارون الرشيد ذوق فى فنون الشعر والغناء أثر فيمن حولها من كبار الفنانين والشعراء . ولمدام دى بومبادور أبرز يد فى حركة الفـكر والفن فى عصرها . ففى الغرب هى المرأة ، وفى الشرق هى المرأة ، حيثما وجدت المرأة صاحبة الذوق وجد فى الحال الفن ونهض الفـكر ،وقامت الحضارة.

إذا قيل إن مصر الحديثة لم تر بعـد فنا ناهضا ، ومن ثم لم تبد أمام العالم بعد فى ثوب الأمة المتحضرة ، فان السبب الوحيـد أن المرأة المصرية ذات الذوق والروح مازالت فى مصر نادرة الوجود ، إن اليوم

الذى تعنى فيه المصرية باقتناء « لوحة زيتية » صغيرة أو « اسكيس » بسيط ينم عن ذوق تزين به جدار منزلها هو اليوم الذى يزهر فيه عندنا التصوير . واليوم الذى تهتم فيه المصرية بشراء نسخة من كل كتاب جديد للمؤلف الذى تفضله وتجلد هذه النسخة وتعرضها عرضاً جميلا ، وتتحدث عما فيها من كلام وأفكار فى مجالسها ، لهو اليوم الذى يرقى فيه عندنا الفكر والأدب ، وإن اليوم الذى توجد فيه المرأة العظيمة التى تكرس بعض همها لايقاظ همم الفنانين وتنشيط الحركة الفكرية لهو اليوم الذى نقترب فيه من المدنية الحقيقية . نحن فى حاجة إلى « البيت المصرى » الذى تنمو فيه كل ملكات الطفل الجميلة . إن الطفل الاوروبى منذ اليوم الاول الذى يستقبل النور فيه لاينام إلا على غناء جميل ، وما يمضى قليل حتى تقوده أمه فى عربة صغيرة إلى الحدائق ، فلايقع نظره الهادىء اللاهى ، فى غير وعى ولا إدراك ، إلا على الطبيعة الجميلة ، بسمائها وجنانها ، وجداولها . ومايكاد يعى ويدرك بعض الادراك حتى توضع فى يديه كتب لا كتابة فيها ولا كلام ، بل صور جميله ملونة للحيوانات والطيور والمخلوقات ، وللطبيعة فى مظاهرها الوضاءة الساحرة ، فيحس جمال الرسم قبل أن يفقه معنى كلمة « الرسم » ويطرب لتناسق النغم قبل أن يعرف ماهو الغناء ، ويشعر بتناسب الاوضاع وتجاوب الالوان فيما يحيط به من مظاهر الخليقة ، ولما يعلم الكلمات والالفاظ التى يعبر بها عن كل هذه المشاعر ،

فهو قد أدرك وجود الجمال عن طريق الاحساس، فلا ينقصه بعدئذ إلا إدراكه عن طريق العقل والمنطق وهو عمل المدرسة والكتب . على أن مجرد الشعور بوجود الجمال فى المخلوقات والأشياء طفرة كبرى فى التكوين الروحى للطفل . فما الجمال إلا المظهر الخارجى والثوب البادى للنواميس العليا ، ففى إدراك وجوده إدراك خفى مبهم لعظمة تلك القوانين التى تنظم الوجود ، وهذا الادراك هو كل شرف الانسان وفضله وهو وحده الذى يميز الانسان عن سائر الحيوان ، فلو شعرت الحيوانات يوما بالجمال لما لبثت حيوانات دقيقة واحدة . إن أظهر عيب فى المصرية الآن هو افتقارها إلى الذوق ، أى الاحساس بالجمال فى الأشياء . كم من المصريات تعتبر الازهار فى بيتها ضرورة كضرورة الطعام والشراب ؟ . . إذا وصلت المصرية إلى هذه الدرجة من الحس المرهف ، وبلغت فى دقة مشاعرها حدا لاتستطيع معه أن تستغنى فى حياتها اليومية عن الجمال فى الالوان والاصوات والافكار ، فلقد حق لنا أن نصيح فرحين مهللين بحق : إن مصر لاتقل رقياً عن أرقى الدول حضارة» وهذه المرأة المصرية ذات الذوق الرفيع والروح المهذب، الدقيقة الاحساس بكل ماهو جميل ، هى نفسها التى تخلق الفنان وتوحى إليه ، لانها لاتستطيع أن تكون بمعزل عن أولئك الذين يصنعون الجمال . إنها ستهتم بأمره وتواليه بالتشجيع ولا تتركه يفترى حتى تستثير خياله ، فالمرأة يجب أن تعلم أن « الفنان » ليس إلا قيثارة ، وأن أناملها الرقيقة وحدها هى التى تستطيع أن تخرج منه أجمل الانغام.

المرأة والفنان

الفنان الحقيقى هو ذلك الرجل العجيب الذى تزوج « الفن » ، فهل مثل هذا الإنسان يستطيع أن يتزوج أيضا « المرأة » ؟ هذا أمر اختلفت فيه الآراء . . ورأيى الشخصى أن هذا مستطاع ، لو أدركت المرأة أن حياتها مع هذا الإنسان لا ينبغى أن تشابه أى حياة أخرى ، وأن حياتها ستبذل بلا ثمن لرجل بذل حياته هو أيضا بلا ثمن ! .

نعم ، يجب أن تفهم امرأة الفنان أن كل حياتها ينبغى أن تقدم لزوجها الفنان ، وأن كل رسالتها فى الحياة أن تكفل لزوجها الحياة الهنيئة الجميلة التى فى كنفها ينتج ويخلق . زوجة الفنان هى تلك التى تعنى بزوجها ولا تطالب زوجها أن يعنى بها . هى التى تزيل متاعب زوجها ، ولا تنتظر من زوجها أن يزيل متاعبها . هى التى تتلقى من زوجها همومه ولا تخبره مطلقاً بهمومها . . هى ذلك المخلوق الذى يعيش صامتاً صابراً باسماً بجوار الفنان طول العمر ، دون أن يشعره لحظة واحدة بوقر هذا الجوار ، هى التى تقف إلى جانبه دائما دون أن يفطن إلى أنها موجودة . إن الزوجة التى تستطيع أن تعيش مع « الفنان » هى بالاختصار تلك التى لها رسالة وعقيدة ، هى التى تستحق بصبرها وتضحيتها أن يقرن التاريخ اسمها باسمه . هى التى تضع فى قلبها هذه الكلمة : « إنما يعيش الفنان من أجل الفن وتعيش هى من أجل الفنان » .

المرأة وأشواكها

كثيراً ما يخلط الناس فى أمر نظرتى وعلاقتى بالمرأة ، وإنهم ليتهموننى أحيانا بالتناقض ، إذيرون أنى أحمل عليها مرة ، وأشيد بذكرها أخرى . والحقيقة أنى فى كلا الحالين أعتقد ما أقول .

فالمرأة من غير شك هى الزهرة المشرقة فى بستان وجودنا الآدمى ، زهرة لها نضارتها وعبيرها ، لكن لها أيضاً أشواكها .

جمال المرأة وفتنتها : تلك هى فى نظرى أشواكها الحقيقية التى تضع فيها كل سموم سلطانها وسطوتها . فالمرأة إنما تشهر علينا نحن الرجال هذا السلاح ، وتقف به فى وجه أعمالنا ، آمرة فينا وناهية ، صائحة بنا أحيانا أن نقف فى طريقنا كما تقف القافلة تحت تهديد قطاع الطريق ، لتأخذ منا كل ما عندنا من وقت ، وقلب ، ومال ، وجاه ، وشهرة . إنها لتجردنا من كل شىء ، وتتركنا عراة تحت سلطان سلاحها المسلط المخيف !

لعلها تتهمنى بالمبالغة ، ولكن هل تستطيع امرأة أن أن تقول لى إن هنالك امرأة فى الوجود تعيش لغرض آخر غير سلب الرجل ! . إنك إذ فتحت رأس امرأة لما وجدت فيه غير هذه الغاية . السطو على رجل !

إن الرجل قد يعيش لعمله ، أو لفكرته ، ولكن فكرة المرأة

وعملها هو البحث عن الرجل الذى تسلبه لحظاته وكل حياته . فاذا نظرت المرأة إلى رجل مشهور فانما تنظر اليه بفكرة واحدة : أن هذه الشهرة لها . وإذا كان غنياً فالمال لها ، وإذا كان لبقاً ظريفاً فكل ذلك لسرورها ولخدمتها !

لست أتكلم بالطبع هنا عن المرأة المجردة من السلاح ، ولكنى أتكلم عن المرأة ذات الأشواك ، المرأة المدججة « بسلاح » الفتنة والجمال . وهاهو ذا تاريخ البشرية أمامنا . أين هى المرأة الجميلة التى لم تستخدم جمالها فى إخضاع الرجل ؟ ؟ كم امرأة فى التاريخ جعلت جمالها فى خدمة « غاية اسمى » من إخضاع الرجل ؟ إن المرأة ليست لها الشجاعة أن تنكس سلاح جمالها فى وجه الرجل . إن المرأة مخلوق « غير سلمى » ، متى وجد فى يدها سلاح تحركت فيها غريزة السطو والحرب . إن المرأة الجميلة هى عدو الرجل المفكر .

المرأة والعظمة

سألتني إحدى المجلات عن النساء العظيمات فى مصر اليوم . فذكرت أربعاً تصلح كل واحدة منهن أن تمثل ناحية من نواحى العظمة فى المرأة : الأولى والثانية معروفتان . والثالثة والرابعة مجهولتان الأولى والثانية رمز لعظمة المرأة الشرقية فى المحيط العام . والثالثة والرابعة رمز تلك العظمة فى المحيط الخاص .

الأولى تلك التى شاركت زوجها العظيم فى قيادة حركة تحرير البلاد . وتعرضت معه لكل الأخطار وقالت له فى شجاعة يوم علمت أن الشجاعة قد تكلفه الحياة : «امض فى طريق الجهاد وأنا معك» وحملت عنه وهو فى منفاه لواء الثورة ، وقاسمته إلى وفاته بيض الأيام وسودها . ثم بقيت وحدها بعده رمز الأمة المتحدة ، لا تميل إلى يمين أو لا إلى شمال وتعصف حول أقدامها عواصف الحزبية وهى ثابتة شامخة كأنها «الوحدة القومية» صبت فى تمثال . إنها بقيت جديرة بزوجها فى حياته ومماته . بل إنها بقيت تذكرنا ببعض معانى العظمة فى وقت نسيت فيه كلمة العظمة فى ميادين السياسة القومية .

الثانية — تلك التى قادت حركة تحرير المرأة فى مصر والشرق وجاهدت جهاداً متصلاً فى سبيل الرقى بمستوى المرأة المصرية الاجتماعى وبذلت جهدها ومالها ووقتها فى إقامة المنشآت العامة التى تنفع الفتاة

والمرأة . ولقد خالفت هذه الزعيمة فى بعض الآراء . لكن مهما يكن من أمر خلافنا فى الوسائل والتفاصيل فانى متفق معها فى الغاية النبيلة والغرض الأسمى . وهو رقى المرأة المصرية والشرقية . من أجل ذلك لا يسعنى إلا أن أعترف بعظمة هذه السيدة التى تكرس حياتها لمثل هذا الهدف العظيم وأرجو مخلصاً أن تنجح فى رسالتها وأن ينصفها التاريخ ، الذى هو لاشك مثبتها على كل حال فى سجل العظيمات .

الثالثة — تلك التى لا يعترف بعظمتها سواى : لأنها مجهولة كالجندى المجهول . وهى مثله تمثل فئة تجاهد فى الظلام جهاد الأبطال . فقد أتاحت لى الظروف أن أعرفها وأراها عن قرب . رأيتها وهى تهذب أطفالها وتنشئهم على حب المثل العليا . لقد كانت تجمعهم كل ليلة عقب العشاء لتقص عليهم قصصاً لذيذاً مما تطالعه أثناء فراغها ، تختاره من بين ذلك النوع الممتلىء بالبطولة الخلقية والفضائل الانسانية ، ولم يكن أطفالها وحدهم هم الذين يلذ لهم هذا القصص بل زوجها أيضاً الذى كان يبكر فى العودة حاملا الحلوى ليصغى إليها مع الأطفال . لقد كانت هذه السيدة إلهة ذلك البيت بالمعنى العظيم لتلك الكلمة . ولقد كانت المعينة لزوجها فى كل شىء الناصحة له فى كل أمر . إذا شذ يوماً عن نصحها ضل . لقد تحملت معه قسوة الحياة منذ اليوم الأول وذاقت معه مر الكأس وكان نصيبها أكثر من نصيبه . أما حلوها فما كانت تسمح لنفسها إلا بالأقل . وكانت ذكية قوية الإرادة تتقن كل عمل

وتحب أن تحذق كل شيء يقع فى محيط حياتها . لقد أدارت بيتها خير إدارة ، بل أدارت مزرعة زوجها خيراً منه يوم اضطرتها الظروف إلى هذا العمل . ولقد شاهدت أولادها يشبون على مبادىء الخلق القويم والرجولة الكاملة التى غرستها فيهم. ورأت زوجها يختم حياته السعيدة لافظاً اسمها مع النفس الأخيره ، فعلمت أنها أدت واجبها كزوجة صالحة وأم مثلى . من هى هذه السيدة ؟ ذلك لا يهمنا ولا يهمها . فحسبنا أن نعرف أنها امرأة عرفت واجبها وآدته عى الوجه الأكمل . وهذا ليس بالشىء القليل على هذه الأرض . وهذا وحده يكفى أن ننحنى لها احتراماً كما ننحنى أمام تمثال الجندى المجهول . ذلك البطل المستتر رمز البطولة المستورة التى لا تقل شأناً عن البطولة المشهورة .

الرابعة — تلك التى .. تريد زوجاً لا كأغلب الرجال . بل رجلا ذا رسالة عامة شاقة يكافح فى سبيل أدائها معرضاً حياته للنجاح والفشل وللسلامة والخطر رجلا يعيش بمثل عليا يرجو أن ينير بها طريق الناس والإنسانية ، لماذا تريد أن تقرن حياتها بحياة هذا الرجل؟ لأنها تريد أن تكرس نفسها لهدف عظيم . إنها إذن عظيمة النفس : إنى أتصور ما تستطيع أن تصنع لزوجها مثل هذه المرأة ؟ إنها ستسهر عليه كما تسهر العين اليقظة على المصباح المضىء ، تحرص على استمرار تألقه وتمسح عنه الدخان وتملؤه بالزيت من حين إلى حين

المرأة والحرية

من بين الاساطير الهندية ، أسطورة معـروفة فى كل مكان . .
خلاصتها أن الاله «تفاشترى» عندما خلق الدنيا . تناول فى يده
العناصر كلها ، وصنع منها الشمس والقمر والنجوم والجبال والرياح
والبحار والاشجار والحيوان . . وأخيرا الانسان . . فى صورة الرجل
الاول . . وجاء ذلك الرجل شاملا لكل العناصر مستنفدا لها جميعها
. . فلما أراد الله . بعدئذ ان يخلق المرأة لم يربدا من أن يستعير لها
صفات غيرها من الكائنات . . فأخذ لها من الشمس ضياءها ومـن
القمر استدارته ، ومن النجوم بريقها ، ومن الجبال عنادها ومن
الرياح تقلبها ، ومن البحار ميوعتها ، ومن الاغصان مرونتها ومن
الندى دموعه ، ومن الورق خفته ، ومن اليمام وداعته ، ومن النمر
قسوته ، ومن الطاووس خيلاءه ، ومن النار حرارتها ، ومن الجليد برودته
عجن الاله كل هذه الصفات وصنع من تلك العجينة ذلك المخلوق
الذى يسمى « المرأة » وقدمه الى الرجل . . هدية تؤنسه وتسره
وتسعده ، فتقبلها الرجل شاكرا . . ولكن لم يمض قليل . . حتى رأى
الاله ذلك الرجل يأتى اليه شاكيا :

ـــ خذ هديتك ! انه سلطان طاغ . . إنه مخلوق لامنطق له . إنه
يسير فى اتجاهات مختلفه . . وطرق متعارضة . . مايحبه اليوم

يكرهه غدا ، ومارفعه أمس خفضه اليوم من اين جئت به ؟ وكيف صنعته ؟ كل المتناقضات فيه . . كأنه ثوب مرقع . . فيه من كل لون قطعة ! ومن كل مادة بضعة !

فقال الاله :

— وما الذى يزعجك من تناقضه وتقلبه . . مادمت أنت المالك لزمامه ؟

فقال الرجل :

— من قال انى المالك للزمام ! لقد قال لى حقا انه جاء لخدمتى ولمصاحبتى ولهنائى ولرفعتى . . ولكن . ما ان استقر فى حياتى حتى غدا هو كالسلطه الطاغية فى الشعب الضعيف !

فقال الاله :

— هذا ليس من حقه .

فقال الرجل :

هذا هو الذى حدث . . إنه لم ينثر على حياتى رغدا . ولا نعيما ولاهناء ولا رخاء . . فهو الاثرة بعينها . والانانية قائمة على قدمين . . تجردنى مما عندى لتمتلىء هى وتنتفخ ، إن هذا المخلوق قد سلب منى ما معى ولم يعطنى شيئا . .

فقال الاله :

— وكيف تركته يفعل ؟ !

فقال الرجل :

لست أدرى .. لقد خدر إرادتى . واستغل لحظات ضعفى واغتر باخلاصى وحبى فجعل يتصرف فى أمرى ومالى تصرف المالك فى عبده . وليته أحسن التصرف .. لقد استبد برأيه فلم يعد يحفل بالاصغاء الى أو يأبه بالتماس المشورة عندى !

فقال الاله :

— وماذا تريد منى الآن ؟ .

فقال الرجل :

— حريتى . . إعطنى حريتى . وخذ هديتك . . الطاغية ! . .

فقال الإله :

— لست أنا الذى سلبتك حريتك . . حتى أردها عليك ! . أنت الذى قدمتها بمطلق اختيارك الى هذا المخلوق . . الذى تسميه طاغية ! . إنى لم أجد لك اضعف منه لامنحك إياه .. مخلوق، كما اعترفت أنت ، لاعقل له ولا منطق ، لايدرى مايفعل اليوم ولا مايتجه اليه غدا اعطيته لك . . لتحكمه لا ليحكمك . . ولتوجهه لا ليوجهك . . ولتأخذ منه هناءك ، لا ليأخذ منك دماءك ! . . ماداخلى أنا إذن إذا كان العكس هو الذى حدث ؟ ! . ثق انى لن أجد لك أضعف منه حاكما لك . . .

قال الرجل :

— وماذا اصنع الآن ؟ . . .

فقال الاله :

— كافح ! كن رجلا . إنى أذكر يوم خلقتك رجلا ، انى جعلت لك قوة وجلدا ! .

قال الرجل :

— الاتخلصنى من هذا المخلوق ؟ . .

قال الاله :

— اخلصك منه . . على شرط . أن أخلصك فى نفس الوقت من قوتك ! . .

— قوتى ؟ ! .

— نعم . . قوتك التى آثرتك بها وميزتك . . . إنى ماأعطيتك القوة عبثا . . إنما أعطيتك القوة لتكافح بها فى سبيل إراداتك ! . . وما دامت لك ارادة ، فلن يسلبك طاغية حريتك ! . . .

* * *

واختفى صوت الإله خلف السحب . . وترك الرجل وحيدا . . يفكر ويردد :

— إرادتى ! .

ثم ثاب إلى رشده أخيرا . . فانطلق الى بيته لايلوى على شىء . . وقد دبر فى نفسه أمرًا . . فما أن بلغ أعتاب الدار ، حتى رأى ذلك المخلوق الضعيف المتعجرف . . واقفا وقفة الزهو . . وقدعقد على رأسه

الفارغ من العقل ، تاجا من زهر . . وهو يتأهب للصياح بلهجة الآمر . . فاقترب منه الرجل ، وأمسك بشعره الطويل الفاحم ، وجز منه بسكين خصلات . . فتل منها حبلا . . أوثق به يديه . .

ثم قال :

— الآن أيها السلطان الطاغى لن تأخذ منى حريتى ! .

المراة والبيت

سألتنى كذلك إحدى المجلات عن رأيى فى الفتاة المصرية الحديثة وفهمها لرسالتها نحو « البيت » . فأبديت خوفاً شديداً من أن يؤدى تيار الحياة العصرية إلى جرف المرأة المصرية بعيداً عن واجبها الأسمى . فالفتاة اليوم أمام هيكلين هائلين يؤثران فى عقليتها الناشئه ومجرى تفكيرها الحديث : دور السينما ودور الجامعات ، و إنى لأخشى أن أقول إن الفتاة فى مصر اليوم إذا فقدت الاتزان واندفعت بكل روحها إلى أحد هذين الهيكلين فلا مناص لها من أن تكون إحدى اثنتين :

الأولى — تلك التى تخرجت بنجاح من دور السينما والملاهى وحذقت تقليد ممثلات هليوود ورأت كلوديت كولبير تصفع زوجها فى الرواية على خده الأسيل فيمسح مكان الصفع بالمنديل وراحت تراقص هذا وذاك وتجلس على مقعد «البار» العالى وتتمدد عارية على أديم الرمال ولا تعرف من شئون الدنيا والآخرة غير الكلام فى الجاذبية وقلة الجاذبية التى عند الرجال ولا تدرك أن عليها لزوجها واجبات، فهى ليست مسئولة عن بيت ولا مطبخ ولا أولاد لأن هذا من عمل الخدم والمربيات . أما هى فوظيفتها فى الصباح الطواف بحوانيت الزينة والثياب والذهاب إلى الخياطات وفى الظهر استقبال زوجها بالطلبات ، وفى العصر التعلق

برقبته ليخرج بها إلى النزهة أو يدعها تذهب إلى (زوزو) و (شوشو) و (موشو) للعب (البريدج) و (الكونكان) .

أظن مثل هذه المرأة توافقنى على أن الرجل المحترم المسئول هو آخر من يفكر فى قبول مثل هذه المرأة شريكا محترماً يسير إلى جانبه فى طريق حياة جدية قد تكون عظيمة الأثر فى تاريخ بلاده .

أما النوع الثانى من المرأة فهو نوع تخرج بنجاح من المدارس والجامعات فحذق تقليد الرجل فى جهله بشئون البيت ، ومعرفته بآراء أفلاطون وأبى العلاء ، نوع من حائزات البكالوريات أو الدبلومات اللاتى قد يصلحن للتدريس أو التوظف ولكنهن لا يصلحن زوجات ، نساء يعرفن أفلاطون ولا يعرفن كيف تقلى بيضة فاذا مرض الطباخ أو خرج تغدى الزوج المحترم بزبدة أفكار أفلاطون .

أما خريجات المدارس الأجنبية ممن تعلمن قشور اللغة الفرنسية أو الانجليزية ومبادىء البيانو فانهن عرائس جوفاء صنعت فى حوانيت (الميردى ديو) أو (الدام دى سيمون) لتوضع مع جهاز العرس فى بيت زوج مسكين كتب عليه أن ينكب بحمل هذه الدمية المتحركة الناطقة (بمون شير) و (ماشيرى) من حيث أراد معينا يعينه على حمل متاعب الحياة .

وكلتا المرأتين لم تفهم مما تعلمته في هذه المدارس المختلفة غير شيء واحد : حقها المطلق في السيطرة على الرجل و إخضاعه وعدم طاعته وجعله خادما لمطالبها نازلا على إرادتها واعتبار أي حق له قبلها تأخراً يقابل منها بالاحتجاج والازدراء . هذا حادث في مصر بالفعل الآن .
أما في أوروبا حيث عرفت المرأة كيف تصل إلا الاتزان المطلوب فها كم ما تقوله زوجة فاضلة في إحدى القصص الفرنسية الشهيرة قرأتها أخيراً بالمصادفة : (منذ الأيام الأولى لزواجي رسمت لنفسي خط سير محدد : هو أن أسمع وأعمل كل ما يريده زوجي ولم أنحرف أبداً عن هذا المبدأ ولقد وجدت نفسي بذلك على خير حال إذ بفضل ذلك جعل زوجي يسمع و يعمل كل ما أريد . هنا سر سعادتي وهي كما ترى قائمة على هذا المبدأ البسيط فلتفعل الزوجة ما يعجب زوجها يفعل هو ما يعجبها .)

هل يستطيع أحد أن يعدد لي كثيراً من الزوجات عندنا اليوم يسرن على مثل هذا المبدأ البسيط ! !

إني أعتقد أن الزوجة الصالحة هي تلك التي تستطيع مشاركة زوجها في سيره الطويل الشاق في طريق الحياة ، وأن تعينه حقيقة أصدق المعاونة على احتمال متاعب السير وأن تخفف عنه قسطاً وافراً من أعباء الحياة اليومية .

لكم أثرت في نفسي صورة أخيرة المستر تشرشل وهو يمشي

إلى جوار زوجته متنزهين فى إحدى الطرق . كل ما فى تلك الصورة يدل على أن هذين الزوجين قد قطعا معا على هذا النحو طريق الحياة بما فيه من هناء وشقاء . كذلك أثرت فى نفسى كلمة إهداء صدر بها أحد كبار رجال السياسة فى فرنسا كتاباً له ختم به حياة كلها كفاح : «إلى زوجتى التى تشاركنى أيامى البيض وأيامى السود» فإلى أن تكثر فى مصر والشرق مثل هذه الشريكة لن نجد بكثرة رجالاً عظاماً يحتملون السير فى طريق الجهاد والمجد حتى النهاية.

سليقة المرأة

أذكر أن فتاة مثقفة سألتنى ذات يوم عن رأيى فى اشتغالها بالصحافة . . وهل هذا العمل يناسب طبيعتها باعتبارها امرأة ؟ . . فقلت لها : ثقى أن المرأة مخبرة صحفية بالفطرة . . . سواء التحقت بجريدة أو التحقت ببيتها . . . لقد كان « آدم » فى الجنة هادئا وادعا ساكنا لايفكر فى شىء ولا يصل إلى عالمه أمر . فمن الذى جاءه بالخبر الأول فى تاريخ الاخبار ؟ . . وأعنى به اقتراح أبليس أكل الفاكهه المحرمه ؟ . . أليست هى « حواء » التى نقلت الى آدم هذا الخبر الهام ؟ ! .

من الذى كان يسمع من « الحية » الكلام ، ويجرى معها « الاحاديث » ويستقى منها الاخبار ويفضى بها الى آدم ؟ . أليست هى حواء ؟ . . انى أعتقد أن هذه الحادثة هى أول عمل صحفى منذ بدء الخليقة . وبهذا تكون « حواء » هى أول صحفية مخبرة ظهرت فى الكون ، قبل أن تخطر فكرة الصحافه على بال مخلوق . . .

ان الصحافة فى دم المرأة . . وهى عندما لاتجد خبرا تنقله أو شخصا تستجوبه ، تعمد إلى زوجها فتقضى اليه بكل ماسمعت فى يومها وما رأت فى نهارها . . أما اذا كان الزوج هو القادم عليها من الخارج فإنها تستقبله بالسؤال تلو السؤال : أين كنت ؟ ومع من كنت

وفيم كنتم تتحدثون؟ . والويل له اذا تهرب من الاجابة متذرعا بالتعب أوراجيا تأجيل الحديث ، أو مؤكدا أنه لم يقابل أحدا ذا أهمية ، ولم يصادف شيئا ذا بال . فانها عندئذ تعامله كما لوكان وزيرا خطيرا يخفى عنها عامدا أسرار أزمه دولية ! . فهى تضيق عليه الخناق . . وتحاوره وتداوره بكل حذق وبراعة ؛ فإذا أكد لها وأقسم أنه ليس عنده ما يستحق الكلام ، صاحت به أهذا معقول ؟ كل هذا الوقت فى الخارج وليس عندك ماتقول ؟ . . وتظل به تستحثه حتى يضطر المسكين الى أن يلفق لها خبرا لم يقع . ولكنها بسليقتها تدرك أن ما قال ليس له نصيب من الصحة . فتبتسم وتسكت متظاهرة بالاصغاء الى أن يتورط فى سلسلة من الاكاذيب والمتناقضات ، فتمسك به متلبسا بالاكذوبه . . فيعترف . . وهنا تقول له :

— لن أصدقك بعد اليوم . . كل أخبارك كاذبة ! . .

— ومن قال لك أن تتخذينى مصدرا للاخبار ؟ . .

— لماذا تخترع ؟ . . لماذا لاتقول الحقيقة ؟ .

لأنه لاتوجد حقيقه . . لايوجد شىء على الأطلاق . . وأنت مصممه على أن تنتزعى منى خبرا بأى طريقه . . .

— أريد خبرا صحيحا لامخترعا !

لايوجد . . قلت لك لايوجد . . ليس عندى اليوم خبر صحيح . . لم يبق الا أن أخترع ! . . والا فلاسكت سكوتا مطبقا . . واياك أن

تسأليني شيئا أبدا ..

— اذن أخترع .. هذا على كل حال خير من لاشيء ..

نعم .. ان الصحافه الاخبارية ميراث المرأة عن جدتها حواء .. فلتهبط ميدانها اذا شاءت ، ولتنقل من الاخبار ماأرادت ، ولتستق من المصادر ماوجدت .. ولن يعوزها اليوم أيضا في الدنيا «أبليس» ولن تنقصها « حيه » فإن محيط المجتمع من قومي وعالمي يعج ويضج بالأبالسة والشياطين والحيات والثعابين ، بأحاديثها ومغرياتها ومقترحاتها ..

ولعل ملايين السنين قد علمت المرأة الآن الحكمة .. فلن تنقل « الخبر » الذى يخرج آدمها الجديد من « الجنة » ! ..

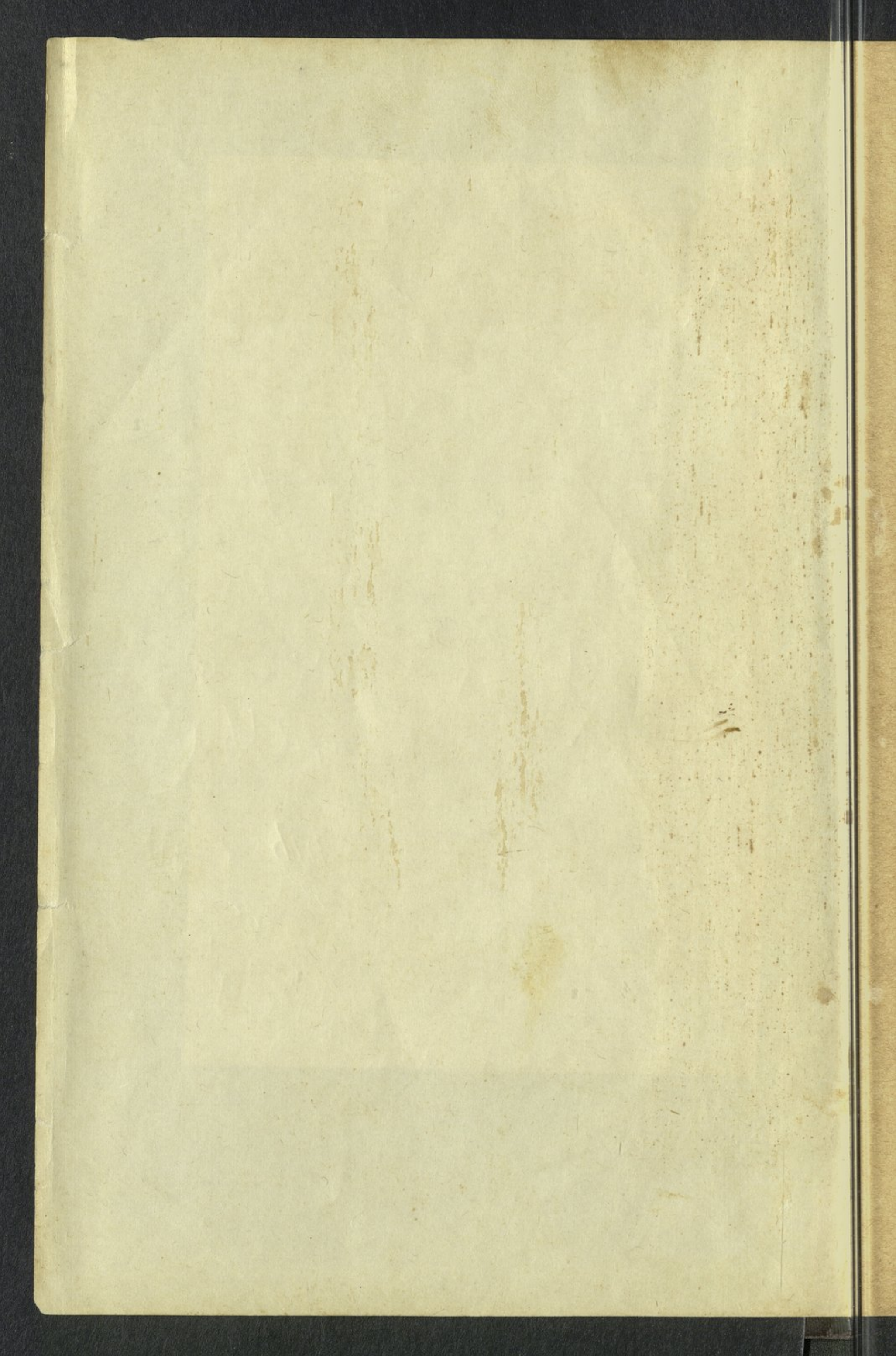
فهرس

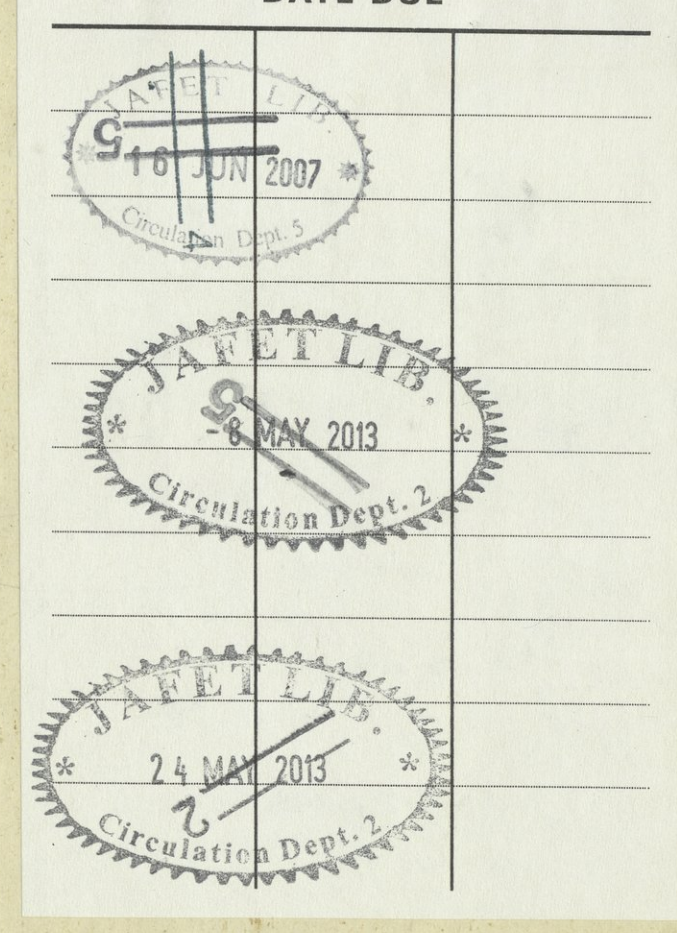
فى الدين

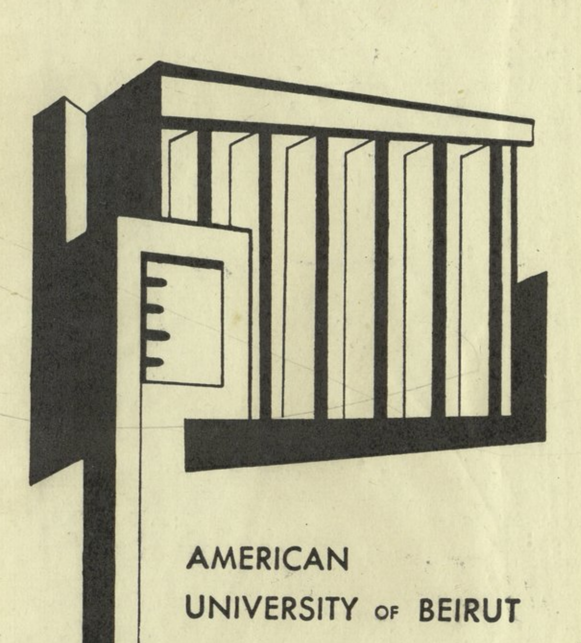
فى الادب والفن والثقافة

فى السياسة والاجتماع

فى المرأة






AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT